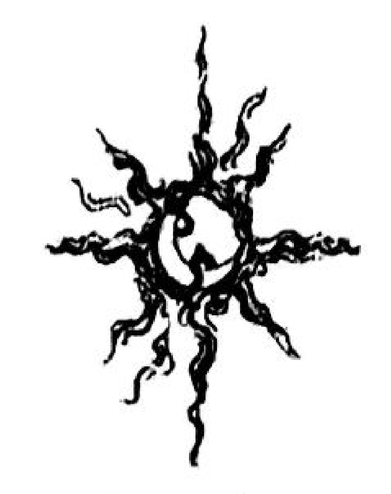
أحمد آل حمدان




آزر
ابن ذئبة الوادي



ملحمة الليل والرمال



مستوحاة من أحداث تاريخية

للمؤلف: أحمد آل حمدان

٢٠٢٥ م

ليس بوسع المرء أن ينال المجد،
دون أن يدفع نصيبه من الألم.

ما جاءت المرأة إلا لأمر إدًّا،
افتح لها الباب تنظر في أمرها يا حِدًّا..

الباب الأول

١

ليلًا،

وعند سفح جبل قريب من الكعبة يُسمى (جبل أبي قُبيس)،

تعالت صرخات طفل رضيع كان مقمّطًا في خرقة بالية، يبكي وحيدًا وقد أضناه البرد ونال منه الجوع. لم يتنبه أحد من سكان الوادي – وادي مكة – إلى أصوات البكاء تلك الليلة .. ليس فقط لأن الوقت كان متأخرًا والجميع يغطُّ في نوم عميق، بل لأن أزيز المطر كان يمنع صرخات البكاء من الوصول إلى الآذان المُنجدة.

وبينما الطفل على تلك الحالة، إذ ظهر مخلوقٌ ما من فوق قِمة الجبل، كان المخلوق عبارة عن ذئبة سوداء ضخمة راحت تدنو من الطفل مقتربة بهدوء مُربك، ومرعب معًا وبخطوات لا تُبشر بالخير أبدًا ..

هي لم تكن جائعة، لكنها كانت في حالة من الغضب الشديد؛ فقبل أيام قليلة قام بعض الصيادين من بني البشر بقتل جروها الوحيد؛ وقد حان الأوان لتلك الأم الكسيرة أن تفتك بأحد صِغار البشر انتقامًا لمقتل صغيرها.

لكن الذئبة ما كادت تقترب منه للحد الذي لم يعد يفصلها عنه غير ضربة مخلب واحدة وتُحقق ثأرها، حتى حدث ما لم يكن متوقعًا: فقد هدأ الرضيع تمامًا؛ وكأنما إحساس غامض بالأمان اجتاح أعماقه عندما استأنس وجود كائنٍ حي بالقرب منه. كان ضعفه وقِلة حيلته وخلجات أنفاسه المُتعبة بعد البكاء، هو ما تسبب في تحريك غريزة الأمومة لدى الذئبة؛ وجعلها ترى صورة جروها الميت مُتمثلة في هذا الطفل البشري الحي.

حارت الذئبة ولم تعد تدري ما تصنع: غضبها يأمرها بقتله، أما قلبها فيطلب منها احتواءه، وبين هذا وذاك طافت حوله قليلًا وهي تصارع الصوتين بداخلها، لا تدري أتنصاع لصرخات الغضب أم تُلبي نداء القلب.

لكن الذئبة ما كادت تقترب منه للحد الذي لم يعد يفصلها عنه غير ضربة مخلب واحدة وتحقق ثأرها، حتى حدث ما لم يكن متوقعًا: فقد هدأ الرضيع تمامًا؛ وكأنما إحساس غامض بالأمان اجتاح أعماقه عندما استأنس وجود كائنٍ حي بالقرب منه. كان ضعفه وقِلة حيلته وخلجات أنفاسه المُتعبة بعد البكاء، هو ما تسبب في تحريك غريزة الأمومة لدى الذئبة؛ وجعلها ترى صورة جروها الميت مُتمثلة في هذا الطفل البشري الحي.

حارت الذئبة ولم تعد تدري ما تصنع: غضبها يأمرها بقتله، أما قلبها فيطلب منها احتواءه، وبين هذا وذاك طافت حوله قليلًا وهي تصارع الصوتين بداخلها، لا تدري أتنصاع لصرخات الغضب أم تُلبي نداء القلب.

٢

أخيرًا جذبته من طرف القِماط وحملته إلى قِمة الجبل حيث تنهض شجرة سِدر عَتيقة وافرة الأغصان، احتمت به تحت أوراقها من زخات المطر وهي تلف جسدها حوله لتمنحه بعض الدفء، ثم راحت تلعق جسده بلسانها حتى عاد الدم إلى وجهه الشاحب وسَكن في حضنها.

بعد لحظات يسيرة من ذلك بدأت أصوات غريبة تنبعث من بطنه أعقبها صوت أنين يُقارب البكاء؛ أدركت الذئبة غريزيًا أنه جائع فعدلت من وضعية جسدها وقربت ثديها من عند أنفه، وما إن استنشق الرضيع رائحة الطعام حتى فتح فمه بحركة غريزية، وسارع في التقام حليبها الدافئ.

لانت ملامح الذئبة وهي تتأمل مشهد الرضيع وهو يتناول طعامه حتى غفا بسلام في حضنها .. ثم جعلت بعد ذلك تتأمل ملامحه الوديعة وثمة شعور غامض يُداهم قلبها تلك اللحظة: لقد أحست بأنها تحتاج إليه أكثر من حاجته إليها، فقد جعلها تشعر بأمومتها المسلوبة؛ وكأن أطفال الأرض كلهم تجمعهم البراءة والعفوية والفطرة الواحدة حتى وإن كانوا في أجناسهم مختلفين.

٢

أخيرًا جذبته من طرف القماط وحملته إلى قِمة الجبل حيث تنهض شجرة سِدر عَتيقة وافرة الأغصان، احتمت به تحت أوراقها من زخات المطر وهي تلف جسدها حوله لتمنحه بعض الدفء؛ ثم راحت تلعق جسده بلسانها حتى عاد الدم إلى وجهه الشاحب وسَكن في حضنها.

بعد لحظات يسيرة من ذلك بدأت أصوات غريبة تنبعث من بطنه أعقبها صوت أنين يُقارب البكاء؛ أدركت الذئبة غريزيًا أنه جائع فعدلت من وضعية جسدها وقربت ثديها من عند أنفه، وما إن استنشق الرضيع رائحة الطعام حتى فتح فمه بحركة غريزية، وسارع في التقام حليبها الدافئ.

لانت ملامح الذئبة وهي تتأمل مشهد الرضيع وهو يتناول طعامه حتى غفا بسلام في حضنها .. ثم جعلت بعد ذلك تتأمل ملامحه الوديعة وثمة شعور غامض يُداهم قلبها تلك اللحظة: لقد أحست بأنها تحتاج إليه أكثر من حاجته إليها، فقد جعلها تشعر بأمومتها المسلوبة؛ وكأن أطفال الأرض كلهم تجمعهم البراءة والعفوية والفطرة الواحدة حتى وإن كانوا في أجناسهم مختلفين.

٢

أخيرًا جذبته من طرف القِماط وحملته إلى قِمة الجبل حيث تنهض شجرة سِدر عَتيقة وافرة الأغصان، احتمت به تحت أوراقها من زخات المطر وهي تلف جسدها حوله لتمنحه بعض الدفء، ثم راحت تلعق جسده بلسانها حتى عاد الدم إلى وجهه الشاحب وسَكن في حضنها.

بعد لحظات يسيرة من ذلك بدأت أصوات غريبة تنبعث من بطنه أعقبها صوت أنين يُقارب البكاء؛ أدركت الذئبة غريزيًا أنه جائع فعدلت من وضعية جسدها وقربت ثديها من عند أنفه، وما إن استنشق الرضيع رائحة الطعام حتى فتح فمه بحركة غريزية، وسارع في التقام حليبها الدافئ.

لانت ملامح الذئبة وهي تتأمل مشهد الرضيع وهو يتناول طعامه حتى غفا بسلام في حضنها .. ثم جعلت بعد ذلك تتأمل ملامحه الوديعة وثمة شعور غامض يُداهم قلبها تلك اللحظة: لقد أحست بأنها تحتاج إليه أكثر من حاجته إليها، فقد جعلها تشعر بأمومتها المسلوبة؛ وكأن أطفال الأرض كلهم تجمعهم البراءة والعفوية والفطرة الواحدة حتى وإن كانوا في أجناسهم مختلفين.

مكثت الذئبة مكانها حتى توقف المطر،

ثم نهضت على قوائمها الأربع بخفة حتى لا توقظ الطفل من سباته، وقد قررت أن تأخذه معها نحو زُمرتها - زُمرة ذئاب الوادي - مع أنها تدرك جيدًا أن الذئاب لن تقبل جنسًا دخيلًا عليها، لكنها سوف تستخدم سُلطتها كزوجة زعيم الزُمرة وتمنعهم من مهاجمته .. فحملته بأنيابها من قِماطه وابتعدت به بضع خطوات ثم توقفت فجأة وقد بان عليها التردد .. فرغم قدرتها على حمايته من غضب الزُمرة، إلا أن إحساسًا فطريًا بداخلها أخبرها بأن ذلك الصغير سيكون بحاجة إلى رعاية خاصة، لا يستطيع تقديمها إليه إلا أفراد قطيعه البشري؛ فبالرغم من قوة جنس بني البشر وتَسلُّطهم، إلا أنهم مخلوقات تُولد ضعيفة في هذه الحياة وتموت إن لم تجد الرعاية الكافية؛ وهكذا وجدت نفسها بين مفترق صعب:

أتعيده إلى بني جنسه فتحفظ له حياته ؟

أم تحتفظ به فتجبر قلبها ؟

٣

نُمير بن رَبيعة

في ذلك الوقت المتأخر من الليل،

أفاق سيد وادي مكة (نُمير بن رَبيعة) لتوه من النوم بعد رؤيته حُلمًا غريبًا، وبينما كان يجلس على طرف السرير يسترجع تفاصيل الحلم ويحاول أن يجد له تأويلًا، إذ التقطت أذناه أصوات أقدام تتسحب داخل الفناء وتقترب من باب داره.

كان يُدرك أن تلك الخطوات ليست لصديق أو ضيف؛ فالصديق لن يأتيَ في مثل هذا الوقت المتأخر، والضيف لن يتسلل خِلسة هكذا، فامتشق سيفه وفتح الباب ليقبض على اللص الجبان، لكنه في عَتمة الليل لم يرَ رجلًا ولا امرأة، بل كانت ذئبة سوداء ضخمة جاءت تحمل بين فكيها طفلًا بشري.

أنزلت الذئبة الطفل أرضًا،

ثم جلست على قوائمها الخلفية خافضة رأسها أمام سيد الدار.

لقد عُرف السيد نُمير بن زَبيعة في قومه بإحياء الموءودة؛ فعندما يهمُّ أحد الرجال بدفن طفلته مخافة الفقر أو العار أو الشؤم، كان السيد يأخذها حتى إذا بلغت سِن الصبا أعادها إلى والدها وقد كفاه مؤونتها؛ وهذا ما جعل داره مقصدًا للكثير من الآباء أو الأمهات الذين يئدون أطفالهم الإناث .. وهكذا فقد قصد دار ذلك الرجل الشهم الكثير من الرجال والنساء على مرّ الزمان، ولكنها المرة الأولى التي يقصده فيها وحشٌ من وحوش الوادي ..[1]

تقدم السيد نُمير بن زَبيعة وسط فناء داره بقدميه الحافيتين، حتى إذا وصل عند الرضيع انحنى عليه وحمله بين كفيه المليئتين بالحنان الأبوي، وأخذ يتأمله بين يديه ..

هنا، تحرك الرضيع وتمطّى، وقد تسببت تلك الحركة في انكشاف القِماط عن جسده؛ ليتفاجأ السيد أن ما يُمسك به صبي وليست بنتًا كما كان يَتوقع، وتساءل في نفسه: " لطالما كانت الأنثى فقط هي من تُترك لتموت، أو يدفنها أبوها حية، لكن الغلام يكبر فيكون سندًا لأبيه وقومه، تُرى من ذا الذي – ولماذا – يتخلى عن غلام مكتمل الجوارح صحيح البدن ومعافى من العيوب ؟ "

---

١ (الموءودة) كان العرب في الجاهلية يدفنون الإناث من مواليدهم وهن على قيد الحياة مخافة العار أو الحاجة أو لأسباب أخرى، وهذا الفعل يُسمى (وأد)

امتدت يدُ الطفل في تلك اللحظة، وأمسكت بخصلة من شعر لحية السيد الكثيفة البيضاء. كانت حركة عفوية بالطبع، ولكنها جعلت ملامح السيد تُصاب بالرعشة والذهول؛ فقد كانت حركة الطفل غير المقصودة تلك، هي ما فسرت له حلمه الغريب والمخيف الذي رآه هذه الليلة.

**

سار السيد نُمير إلى خارج الدار وهو يحمل الرضيع بين ذراعيه وقد استطاع – بينما هو يتجه نحو الكعبة – أن يلمح الذئبة من زاوية عينه وهي تتبعه في جُنح الظلام؛ فأدرك لحظتها أنها تعتبر نفسها أمًّا للطفل، إنها متعلقة به جدًّا وتخاف عليه كما لو أنه ابنها، وهذا بحسب خبرته لا يحدث إلا إذا كانت الذئبة قد أرضعت الطفل من حليبها.

وما إن وصل ناحية الكعبة حتى صعد بالطفل جبلًا قريبًا منها تُقدسه العرب وتجله، يُسمى جبل الصّفا، بينما اختبأت الذئبة قريبًا من هناك وأخذت تراقب بنظرات قلقة ما سوف يحدث بعد قليل..[٢]

---

٢ (جبل الصّفا) هو النقطة التي بدأت منها هاجر – زوجة النبي إبراهيم – السعي بحثًا عن الماء لطفلها إسماعيل؛ ولهذا كان لذلك الجبل في قلوب أهل مكة منزلة كبيرة؛ فيقصدونه عندما يرغبون في إنذار قومهم بحدث جلل.

كان السيد نُمير يدرك جيدًا مشاعر الاستنكار والتعجب التي سيقابله بها أفراد قومه، بعد أن يكتشفوا سبب دعوته إليهم في هذا الوقت المتأخر من الليل .. ولكنه سيمضي قُدمًا فيما عقد العزم عليه؛ فالحلم الذي رآه في ليلته هذه خطير - بل خطير جدًا - ويجب عليه أن يحمي قومه مما هو قادم، فأخذ نفسًا عميقًا وصاح:

- واصباحاااه .. واصباحاااه .. واصباحاااه ! !

تُعدّ هذه الكلمة (واصباحاه) عند العرب بمثابة قرع طبول الحرب، لذلك ما إن خرجت من فمه حتى راحت قناديل الضوء تشتعل في البيوت واستيقظت العيون الغافية، بينما السيد يواصل نداءه:

- يا سادة البطحاء، يا آل مكة، يا أهل الوادي، هلموا إليَّ ! ![3]

**

وما إن ميّز الناس صوت المُنادي وعرفوا أنه سيّدهم نُمير بن رَبيعة حتى هبوا جميعًا: الكبار والصغار، السادة والعبيد، الفرسان والصعاليك، وقد حمل كُل منهم سيفه وعِدة حربه، وراحوا يركضون نحو مَنبع الصوت ينظرون الخطب والخبر. فاجتمع الناس تلك الليلة حول جبل الصّفا بوجوه متطلعة وقلوب واجفة ..

كل ذلك والذئبة تراقب ما يحدث من مخبئها بعين قلقة ..

---

٣ (سادة البطحاء) مصطلح يُقصد به سادة مكة .. (آل مكة) تعني أهلها الأصليين، أما كلمة (أهل الوادي) فهو مصطلح يعني جميع من يسكن وادي مكة.

مَهابة المشهد كانت تجعل الناظر من بعيد يُخيل إليه أن الفضول كان يسكن حتى الأصنام المنتصبة حول الكعبة، وكأنما هي الأخرى تريد أن تعرف ما الذي سيحدث بعد قليل، تأمل السيد وجوه الحشد من حوله للحظات قبل أن ينفرج فمه عن هذا السؤال:

- أفقد أحدٌ منكم رضيعًا هذه الليلة ؟

أطبق صمتٌ غريب على المكان، وراح الناس يتبادلون النظرات فيما بينهم وكأنما لا يُصدقون؛ فقد جاؤوا يتوقعون حربًا أو غارة تُشن عليهم وإذ به يسألهم عن طفل رضيع ؟! ..

قطع السيد عليهم صمتهم ذاك في حدة وغضب:

- ثكلتكم أمهاتكم، ما لكم لا تُجيبون ؟

قال أحد السادة متحدثًا بلسان الجميع وباحترام يشوبه العتب:

- أصلحتك الآلهة يا نُمير .. أتوقظنا من مَرقدنا هذه الليلة لأجل رضيع جيء به إليك ؟! .. أما كنت تنتظر حتى يجتمع السادة في دار الندوة صباحًا فتحدثنا بشأنه ؟!

- هذا خطبٌ ليس كباقي الخطوب، وإنه واللات لا ينتظر حتى الصباح.

انبعث من أقصى يسار الحشد صوت سيدٍ آخر يقول متسائلًا:

- وأي خطب جلل في هذا والناس ما فتئوا يطرقون عليك باب الدار، ويُلقون إليك بأطفالهم في الغداة والعشيّ ؟

- لأن طارق الدار لم يكن من البشر هذه المرة.

عاد الصمت يُطبق عليهم مرة أخرى،

صمتٌ لم يكسره غير صوت انبرى من وسط الحشود، لسيد مُهاب بين العرب اسمه (الحارث بن الأجهر) وهو الرجل الثاني في الوادي بعد السيد نُمير بن رَبيعة:

- ومن جاء بالرضيع إليك ؟

نظر السيد نحو زاوية خلفه وأشار بيده لمن فيها، فظهر من عُمق الظلام ذئبة سوداء ضخمة ذات فراء كثيف، سارت بقوائمها الأربع حتى وقفت إلى جواره. هنا تساءل الحارث وهو يكاد لا يصدق ذلك المشهد كحال غيره من الناس:

- أهذه الذئبة هي من أتت به إليك ؟

أومأ السيد نُمير برأسه، وأضاف وهو ينظر إلى وجوه الحاضرين:

- وأظن أنها قد أرضعته من حليبها أيضًا، ونصبت نفسها أمًا له.

وبينما الناس في غمام من الذهول، إذ صاح السيد نُمير عليهم:

- **أشهدكم يا أهل الوادي ! ! !**

شخصت أبصار الناس إليه وكُتمت الأنفاس .. وراحت أسماعهم تترقب ما سوف يُقال لهم، ثم رفع السيد نُمير الرضيع بكلتا يديه عاليًا، وقال بصوتٍ مَهيب:

- أُشهدكم أنني أسميته (آزر) وأُشهدكم أنني أكفله في حياتي ومماتي، وأنه منذ اللحظة تحت حِماي وجواري؛ يُصيبني ما يُصيبه ويمسني ما يمسه، فمن تعرض له بسوء فقد أهدر دمه.

وما إن تأكد من أن صوته قد وصل إلى جميع الآذان حتى أرخى يديه وقال:

- وإكرامًا لمن جاءتني به؛ فهذه الذئبة أيضًا في حِماي وجواري.

ثم التفت ينظر إلى الناس ويسألهم:

- هل شهدتم ؟

كان ذلك موقفًا غريبًا لم يسبق لأحدٍ أن شهد مثله من قبل: سيد القوم يستدعي الناس ليلًا، ليُشهدهم أنه يُجير طفلًا مجهول النسب، ووحشًا من وحوش الوادي.

- ما لكم لا تُجيبون ؟ أأصابكم الخرس أم العته ؟

إكرامًا لسيدهم، قالوا بصوت واحد:

- شهدنا، شهدنا ! !

**

انصرف الناس بعد ذلك عائدين إلى بيوتهم، بينما تطلع السيد نُمير إلى الذئبة ومسح بيده الحانية على رأسها، ورغم يقينه بأنها لا تفهم كلام البشر، إلا أن شيئًا ما في داخله أخبره بأن قلبها سوف يفهم كل كلمة يقولها لها؛ وهذا ما دفعه لأن يُكلمها:

- كنتِ تستطيعين سفك دمه أيتها الذئبة .. ولكنكِ ولسبب لا يعلمه غير السماء قررتِ احتواءه؛ ولذلك فمنذ الآن وصاعدًا سيكون اسمكِ حواء.

تأملته الذئبة بعينيها الواسعتين، فشاهد السيد في ظلام عينيها ما أثبت له صدق إحساسه؛ لقد وقعت كلماته في قلبها وفهمت كل ما قيل لها، أكمل نُمير قائلًا:

- أريدك ألّا تقلقي بشأن آزر فقد تعهدت أمام القوم بكفالته حيًا وميتًا، وسوف يكون بأمان هنا .. ويُمكنكِ أن تأتي لزيارته أنّى شاء لكِ ذلك ولن يمسّك أحدٌ بسوء.

رفعت حواء رأسها باتجاه الرضيع ففهم السيد مقصدها؛ وانحنى به إليها فألصقت وجهها بخده وكأنها تُلقي عليه بذلك تحية الوداع، ثم انصرفت، بينما ظل السيد يُشيعها ببصره حتى توارت خلف الظلام وجاءه صوت من خلفه يقول:

- ما لك ولهذا الأمر يا نُمير ؟

التفت السيد إلى مصدر الصوت؛ فرأى الحارث بن الأجهر مقبلًا إليه:

- أأنت أيضًا تظن أنني جمعت الناس لأمر لا يستحق ؟

- رضيعٌ تأتي به ذئبة سوداء في هذه الليلة الحالكة، إنه واللات والعُزى لأمر يدعو إلى الشؤم؛ فإن شئت الرأي: أرسله خارج مكة؛ فتتخلص من شؤمه ولعنته.

- لا أُخرجه وقد أدخلته حماي وجواري.

- أُخرجه عنك إذًا، فأكفيك عناء ذلك.

- صه أيها الحارث، واللات لولا الصحبة التي بيننا لأريتك ما تكره.

أدرك الحارث بن الأجهر على الفور أنه أخطأ بحق صاحبه؛ فقال بلهجة متودّدة:

- صُحبتنا القديمة تجعلني أُدرك أنك لا تفعل شيئًا على عواهنه، فأخبرني سرّ هذا الأمر .. وإنك لتعرف أنني صاحب أمين؛ أحفظ لك السرّ وأصدقك المشورة.

لقد عَزم السيد نُمير أن يكتم الأمر في نفسه، ولكن ما يعرفه كان أكبر من أن يستطيع السكوت عنه:

- لقد رأيتُ في منامي هذه الليلة أمرًا عجبًا يا حارث: رأيتُ أعاجمَ يأتون من المشرق يركبون الخيل ويعبرون القَفر، ثم يخطفون كوكبًا من سماء العرب.

كان السيد نُمير بن رَبيعة رجلًا صاحب رؤيا؛ لا يرى في منامه حُلمًا إلا استحال واقعًا؛ وهذا ما دفع الحارث لأن يأخذ ذلك الحلم على محمل الجد ويسأل باهتمام:

- وما دخل الطفل بهذه الرؤيا يا نُمير ؟!

أجابه السيد:

- ما إن أمسك هذا الصغير لحيتي بيده حتى أعاد إليَّ الحُلم وكأنه بات أمامي حقيقة؛ قلبي يُحدثني أن لهذا الطفل سرًا وخبرًا، وأنه يُؤازر قومه حين يكبر؛ ولهذا أسميته (آزر) .. فاحفظ عني هذا السر يا حارث ولا تخبر به أحدًا.

بعد سنوات..

٤

من فوق قِمة جبل يُطل على الكعبة هو (جبل أبي قُبيس) كان آزر البالغ عمره الآن - اثنتا عشر عامًا - يجلس متوسدًا حضن أمه الذئبة حواء، يُحدق إلى السماء بينما ألوان الغروب البرتقالية تلون حدود الأفق، مُعلنة عن رحيل الشمس وظهور قَمر ليلة مكتمل.

لقد اعتاد الجلوس كل يوم فوق قمة ذلك الجبل؛ فمنذ أن كان طفلًا كانت الذئبة حواء تجيء من أجله كل صباح لتحمله معها وسط صيحات الأطفال وخوف النساء، وتصعد به إلى قمة الجبل حيث شجرة السِدر العتيقة فيحتميان بظلها من أشعة الشمس، بينما تمكث معه وتلاعبه حتى إذا جنَّ الليل أعادته إلى منزله ورحلت عنه؛ كانت هذه عادتهما على امتداد الأعوام الماضية حيث كل يوم يشبه الذي قبله، ولكن اليوم بالذات حدث أمرٌ مختلف جعل آزر يتمنى لو أن حواء كانت تستطيع الكلام؛ فيبوح إليها بما يُثقل كاهله ويسمع منها ما يُخفف الحزن عنه، ورغم يقينه بأنها لن تستطيع الإجابة عن سؤاله، إلا أنه وجد نفسه يتحدث معها وكأنه يريد التخلص من كلمات لا يريد أن يُبقيها بصدره فيختنق بها:

- لماذا يكرهني الجميع ؟

كان ذلك السؤال يخترق قلبه مثل وكزة رمح؛ فقد كان الناس جميعهم يتجنبونه ويكرهونه، ليس لأنه مجهول النسب فقط، بل لأنهم يعتبرونه فأل شؤم أيضًا؛ فقد مات سيدهم نُمير بن رَبيعة بعد أن كفله بثلاثة أشهر فقط، ومنذ ذلك الحين، والناس لا تمرّ بهم مصيبة كبيرة أو صغيرة إلا وألصقوها به، فإن حضر قالوا جاء وجلب المصيبة معه، وإن غاب قالوا إن المصيبة ما حلّت بهم إلا لأنه يسكن بينهم.

همس بصوت، غصّ بمشاعره:

- أنا لا أؤذي أحدًا ولا أسرق شيئًا من أحد .. ولا أضرب إلا دفاعًا عن النفس - ثم أكمل من بين شهقاته يقول: لماذا يتجنبون الحديث معي؟ ولماذا لا يُشركني الأولاد في ألعابهم ؟ ولماذا يُقابلني الجميع بكل هذا الكره والحقد ؟

قرّبت الذئبة رأسها منه ولعقت بلسانها وجهه؛

لطالما كانت هذه الحركة تُنسيه حزنه وتدفعه إلى الانهماك في نوبة من الضحك المتواصل، ولكن حزنه هذه المرة كان أكبر من كل مرة سابقة بسبب ما حدث في ظهيرة هذا اليوم ..

(ما حدث في ظهيرة اليوم)

بدا ذلك اليوم عاديًا:

حيث آزر بجلس إلى جوار بُثينة - وهي أجيرة سمراء تعمل في دار السيد نُمير بن رَبيعة، تعتني بالأطفال الذين كفلهم سيدها قبل موته - وبينما هو جالس إلى جوارها إذ ألقى عليها بسؤال أثار فضوله وهو يتأمل الأصنام التي يربو عددها على ثلاثمئة صنم[٤] حول الكعبة، ويشاهد الناس وهم يسجدون لها وينحرون لأجلها البهائم ويقدمون لها الشراب والطعام:

- لماذا يفعل الناس هذا يا بُثين ؟!

ابتسمت المربية السمراء وقد أدركت أن مزاج الصغير في أفضل أحواله؛ فهو لا يناديها بذلك الاسم (بُثين) إلا إن كانت حالته المزاجية في أفضل أحوالها:

- إنهم يفعلون ذلك لجلب البركة والحماية والنُصرة عند الحاجة.

---

٤ كان عدد الأصنام حول الكعبة في زمن الجاهلية ثلاثمئة وستون صنمًا، حسب ما ورد في بعض المصادر التاريخية.

كان الصبي معتادًا على مكاشفتها بما في نفسه دون تردد أو خوف؛ وهذا ما دفعه لأن يقول:

- لقد رأيتُ الصعاليك وهم يسرقون الطعام والشراب ليلًا من أمام تلك الآلهة، دون أن يُحرك أحدٌ منها ذراعًا للدفاع عن نفسه، أو دون أن تنطق في اليوم التالي لتخبر عن الشخص الذي سَرقها، فكيف يكون ذلك يا بُثين؟ كيف يكون بوسع هذه الأصنام أن تمنح البركة والحماية والنُصرة لمن يعبدها وهي لا تستطيع أن تُقدم شيئًا من ذلك لنفسها؟

بالرغم من حداثة سِنه وعدم تلقيه العِلم من الكَهنة أو الأحبار، إلا أن ابتعاد الجميع عنه وعدم مخالطتهم له، قد ساهم في أن يحافظ على فطرته الإنسانية السليمة دون أن تشوهها مُعتقدات الآخرين وأفكارهم الخاطئة. اتسعت عينا بُثينة في جزع وهي تقول:

- اخفض صوتك؛ فلا يسمعك أحد.

- لا تخافي؛ إنها لا تسمع شيئًا، وإن سمعت فإنها لا تضر ولا تنفع.

- لستُ أخاف عليك منها - قالت - بل من سادة مكة وشيوخها، فهم إنما يُبقونك بينهم حفظًا لجوار سيدنا نُمير بن رَبيعة؛ فإن سمعوك الآن تقول كلامًا خطيرًا كهذا، فإنهم لن يتأخروا بطردك وربما قتلك بحجة تعديك على آلهتهم؛ فعِدني ألّا تُخبر أحدًا بمقالتك هذه أبدًا.

على الرغم من أن الموقف لا يحتمل التبسم؛ إلا أن آزر ابتسم عندما أحس بأن هنالك من يخاف عليه. لقد كان طعم ذلك الشعور بالنسبة إليه أحلى من قصعة بُر مُحلاة بالعسل:

- أعدك - قال - أعدك ألّا أخبر أحدًا.

ما إن أخذت الوعد حتى غادرت في بعض شأنها مرتاحة البال، فهي تعلم أنه لا يَخلف وعدًا قطعه أبدًا. في حين ظل آزر مكانه وحيدًا يُكمل تأمله في الطائفين حول الكعبة وأصنامها .. وبينما هو كذلك، إذ حاوطه فجأة عدد من الفتيان الذين يقاربونه عمرًا؛ يتقدمهم فتىً يرتدي حُلة فاخرة اسمه (كَعب)، يعصب حول رأسه عمامة عربية ينسدل من أسفلها شعره الأسود الطويل:

- هذا وقت السادة، أما العبيد فيأتون بعد مغيب الشمس.

ابتلع آزر الإهانة كعادته - ليس جُبنًا منه - بل خوفًا من أن يندفع بالرد فيجلب بشجاره مع أبناء السادة مزيدًا من كراهية الآخرين له؛ فأخفض بصره خضوعًا وقال يرد بأدب:

- لستُ عبدًا.

اتسعت ابتسامة كَعب وهو يقول مواصلًا مضايقته:

- إنك لا ترقى لمنزلة العبيد حتى؛ فأنت لقيط مجهول النسب.

بدا ذلك الصبي كَعب أنه أكبر الصبيان منزلة ومكانة؛ فقد كان يتحدث والبقية يضحكون فقط. همَّ آزر بالمغادرة ولكنه ما إن استدار حتى أوقفه كَعب قائلًا:

- ألم تتعلم ألّا تغادر من أمام السادة قبل أن يأذنوا لك ؟

في الحقيقة، كان آزر يتمنى لو أن تلك العُصبة يقبلونه صاحبًا بينهم، وكان هذا سببًا إضافيًا يجعله ينصاع إلى رغبتهم دون مخالفة؛ إنه لا يريد أن يتشاجر معهم الآن فيُصبح من المستحيل عليه مستقبلًا أن يكون صاحبًا لهم؛ وهذا ما جعله يقول:

- اسمح لي بالانصراف.

في الجهة المقابلة كان كَعب يريد أن يفرض سطوته أمام أصحابه ليُثبت لهم أنه السيد ابن السيد، وقد وجد في آزر - المستضعف - والذي ليس له من يدافع عنه فرصة مواتية في ذلك:

- لقد نمى إلى أسماعنا أن بُثينة تعلمك القراءة.

- نعم، صحيح.

- أخبرها أن ذلك العِلم لن يُعلي مكانتك؛ فأنت ستظل دائمًا لقيطًا مجهول النسب، لا مجد لك ولا كرامة.

كانت بُثينة بالفعل قد علمته الحروف العربية أثناء أوقات فراغهما؛ فكان سعيدًا بذلك العلم فخورًا بأنه أحد القلائل ممن يستطيعون القراءة والكتابة، ولكنه لن يدخل في جدال مع كَعب حول ذلك؛ وهذا ما دفعه إلى أن يقول:

- حسنًا سأخبرها - ثم أضاف وهو يستدير: استأذنك الآن.

ولكنه ما كاد أن يبتعد قليلًا حتى أسمعه كَعب ما لا يطيق:

– لقد علمني والدي الحارث بن الأجهر اليوم شيئًا أحسن مما تعلمك إياه بُثينة؛ لقد علمني كيف أنحر البهائم – ثم سحب خنجره وجعل يلوح به أمام ضحكات أصحابه وهو يُضيف قائلًا:

– فأين أمك الذئبة لأنحرها ؟

هنا لم يعد آزر قادرًا على كبح غضبه وهو يسمع أحدًا يُهين أمه؛ فهجم على كَعب وهو لا يُبالي بسيد أو لقيط أو عبد، أو بما سوف يحدث لاحقًا، فانتزع الخنجر من يده ثم التف حوله وجرح ساقه بحركة سريعة؛ ليسقط كَعب بعدها أرضًا والدماء تسيل من ساقه، بينما اقترب آزر من عند أذنه وهو يهمس بصوت غاضب:

– ستخرج هذه الدماء من عُنقك عندما تُهين أمي في المرة القادمة.

ارتعد الصبية من هول المشهد، وانطلقوا في أزقة مكة وشِعابها يتصايحون ويُذيعون:

– لقد اعتدى آزر على كَعب بن سيدنا الحارث بن الأجهر ! !

اختلطت المشاعر في أعماق آزر وهو يستمع لصرخاتهم وأحس برغبة في الهرب – ليس من المكان فقط – بل من الوادي كله وهو يرى الناس يأتون ركضًا بعد سماعهم الخبر ويحيطون بكَعب ليتفقدوه ويطمئنوا عليه؛ أشفق آزر على نفسه وهذا ما دفعه إلى أن يميل بالخنجر نحو ساقه ويجرحها أملًا في أن يفوز بعينٍ حنونة تنظر إليه .. ولكن العيون كلها كانت تنصب حول ابن السيد ..

وما هي إلا لحظات يسيرة بعد ذلك حتى جاء عبيد الحارث بن الأجهر ليطمئنوا على ابن سيدهم والذي ما إن لمحهم يقتربون منه حتى رفع عقيرته بالصياح مبالغًا في تصنع الألم، مدعيًا أنه تلقى طعنة خطيرة لن تنجوَ منها ساقه إلى الأبد؛ فأخذ العبيد يواسونه وهم يحملونه إلى الدار رغم معاينتهم الجرح وتأكدهم بأنه سطحي لا خطر منه أو قلق، بينما مكث آزر مكانه دون أن يعطيه أحد من الناس اهتمامًا وكأنه حشرة لا وجود لها، وظلّ كذلك - يُقاسي من التهميش والتجاهل - حتى أطبقت عليه يدٌ كبيرة هي يد عبد اسمه جحش وجرته نحو مكان ما ..

**

(دار الحارث بن الأجهر)

وقف الاثنان - آزر وكعب - في فناء الدار الواسع أمام سيد سادة الوادي الحارث بن الأجهر، والذي بدا غاضبًا وهو ينظر إلى ابنه قبل أن يصرخ عليه وكأنه أسد يزأر:

- صهٍ يا كعب !!

ثم أضاف بنبرة أهدأ:

- فلا يليق بأبناء السادة أن يبكوا مثل الثكالى هكذا.

صمت كعب وقد أوقف مبالغته بينما واصل والده تأنيبه:

- ثم كيف سمحت له بأن يأخذ خنجرك من يدك ويجرحك به ؟

كَعب وهو يبتلع ريقه ويمسح بكم ثوبه الدموع:

- لقد غدر بي، جاءني من الخلف وسرق خنجري على حين غرة.

كان آزر قد قرر سلفًا أن يَصمت ولا يُقحم نفسه فيما لا تُحمد عقباه، ولكن عروقه النابضة بالدماء العربية أبت عليه أن يصمت بعد أن وصمه أحدهم بالغدر؛ فانطلق لسانه على الرغم منه:

- كذب ورب الكعبة، إنما الغدر للجبناء.

لم يستطع الحارث منع نفسه من الإعجاب بذلك الصبي ولكنه تمسك بحمية الأبوة:

- إنه لا يمنعني عن إلحاق الأذى بك يا آزر أو طردك من الوادي إلا وفاءً لجوار صاحبي نُمير بن رَبيعة .. فإياك أن تعود إلى مثلها مجددًا؛ فإن صبري لن يغلب غضبي في المرة القادمة.

بنظرة كسيرة همس آزر ورأسه مُطأطأة:

- سمعًا وطاعة.

التفت الحارث بن الأجهر نحو عبيده وقال:

- خذوا سيدكم كَعب إلى الجواري ليعتنين بجرحه ويُطببنه - ثم أضاف وهو ينظر إلى مجموعة أخرى من العبيد: وأنتم اذهبوا إلى الكعبة وذيعوا عند الناس هذا الخبر: قولوا بأن آزر قد غدر بكَعب ابن سيدنا الحارث وسرق خنجره على حين غرة، ولولا ذاك لما استطاع إلحاق الأذى به، وأخبروا الناس أيضًا أنني عفوت عنه وفاءً لجوار سيد القوم نُمير بن رَبيعة.

عضّ آزر شفتيه كي لا ينفجر بالبكاء أمامهم، فهو يُفضل أن يوسعه العبيد ضربًا بالأقدام والعصي ولا أن يذيعوا ذلك الخبر الكاذب عند الطائفين حول الكعبة، ولكنه كالعادة صمت ولم يعترض على الأمر حتى لا يَجلب لنفسه مزيدًا من المشاكل، نهض الحارث مغادرًا ومُعلنًا بمغادرته انتهاء المحاكمة بينما لحقه العبد جحش بهذا السؤال:

- ساق هذا الصبي جريحة أيضًا يا سيدي، أنحمله للجواري يُطببنه ؟

لم يكلف الحارث نفسه عناء الالتفات حتى، وقال وهو يسير مبتعدًا:

- بل إلى جبل أبي قُبيس، هناك ستلعق أمه جراحه بالتأكيد.

**

(فوق قمة جبل أبي قُبيس)

رفع آزر رأسه بعد أن فرغ من تذكر أحداث ما بعد ظهيرة اليوم، وراح يتأمل القمر صامتًا وهو يفكر بالشيء الوحيد الذي يتمناه في هذه الحياة؛ فذلك الصبي كانت لديه أمنية واحدة فقط هي أن **يُخلِد اسمه في التاريخ**، لكن الظروف التي وجد نفسه عليها كونه لقيط وسط بيئة تمجّد الأنساب والقبائل وتُقصي الغرباء وتمقتهم؛ هي ما جعلت تلك الأمنية بالنسبة إليه تكاد أن تكون أكثر بعدًا من المسافة التي تفصله عن القمر.

كان هذا العجز الذي يشعر به الآن هو ما جعله يرغب بمغادرة المكان، فنهض من مكانه وركض مبتعدًا .. بينما ظلت الذئبة تُشيعه ببصرها صامتة لا تدري ما الذي حَلّ به.

**

هبط آزر من أعلى قمة الجبل،

لم تكن طريق النزول مُعبدة أو مُضاءة، إلا أنَّ الفتى الذي حوى كثيرًا من صفات الذئاب أخذ يهبط الجبل بخفة ومهارة مستعينًا بضوء القمر الخفيف كما لو أنه كان يملك عيونًا تُبصر أسفل قدميه .. وما إن وصل الأرض حتى راح يكمل ركضه بحيطة وحذر كيلا يراه أحد وهو يذهب إلى المكان الذي يقصده.

٥

سار آزر بين الأصنام التي تنهض على امتداد الحرم المكي، تحمله قدمان خفيفتا الخطو حتى وصل الكعبة .. ورغم الباب الذي قد أحكم السَدنة إغلاقه إلا أن جسده الصغير كالعادة وجد منفذًا من بين فُرجتي الباب للدخول؛ كان يشعر براحة غامضة تغمر قلبه كلما دخل جوف الكعبة؛ وهذا ما يدفعه إلى التسلل إلى هناك خلسة كلما أحس بأن العالم ضيقٌ عليه.

جلس آزر في الزاوية ضامًا قدميه إلى صدره ينظر من وراء شعره الناعم المنسدل فوق عينيه إلى هُبل - إله الحرب - والذي لفرط تعظيم العرب وتقديسهم له، كانوا قد خصصوا له مكانًا داخل جوف الكعبة، فأخذ يتأمله دون معنى، وبداخله سؤال وحيد جعل خيطًا من الدموع يسيل على خديه الأمردين المكسوين بطبقة رقيقة من الغبار:

" تُرى لماذا كل الذين بعمره لديهم آباء وأمهات ؟ بينما هو الوحيد الذي جاء إلى الدنيا محرومًا منهما ؟ تُرى ما هو الذنب الذي اقترفه وهو رضيع ليجعل والديه يُقرران هجره وحيدًا في البرية ؟ "

وبينما هو مستغرق بتساؤلاته تلك إذ التقطت أذناه فجأة صوت خطوات تسير في الجوار، فألصق عينه بفُرجة الباب وجعل ينظر من خلالها؛ ليشاهد امرأة تمشي بحذر في الجهة المقابلة للكعبة وهي تتلفت خلفها كل لحظة كيما تتأكد من أحدًا لا يراها ..

**

(المرأة في عباءة الليل)

أدرك وهو يختلس النظر إليها بأن تلك المرأة ليست جارية؛

فجسدها الممتلئ نسبيًا وثيابها النظيفة وحذاؤها المصنوع من جلد الماعز .. كانت كلها أمارات تشير إلى أنها امرأة حُرة: " فما الذي تفعله امرأة مثلها – حُرة – في مثل هذا الوقت المتأخر ؟! .. ولماذا كل هذا القلق يبدو واضحًا عليها وهي تحث خطاها نحو المكان المجهول الذي تقصد الذهاب إليه ؟ "

هذه التساؤلات هي ما حركت الفضول لديه وجعلته يغادر مكانه ليتبعها متسللًا في الأزقة والشعاب حتى رآها وهي تتوقف أمام دار أحد أكثر الكهنة خطورة ورعبًا وتطرق بابه.

لم يسبق لآزر أن رأى ذلك الكاهن من قبل،

لكنه كان قد سمع عن شكله الذي تقشعر منه الأبدان وتنخلع لمرآه القلوب؛ فهو عبارة عن نصف إنسان: له عين واحدة ويد واحدة وقدم واحدة وكأنه قد شُق إلى نصفين وهذا ما جعل العرب يُلقبون ذلك الكاهن باسم شِق.

**

(الكَاهن شِق)

بحذر شديد: اقترب آزر من نافذة الدار وأرسل إلى الداخل نظرة مختلسة فشاهد حُجرة مُظلمة شُيد سقفها من جريد النخل، وكُسيت حيطانها الطينية بالعظام والجماجم وجلود الحيوانات .. ثم تحركت عيناه إلى الأسفل عندما لمح شيئًا يتحرك على الأرض فأصابه الرعب مما شاهد؛ فقد كان الكاهن شِق يستند إلى الحائط أسفل النافذة ويمد قدمه الوحيدة نحو مبخرة في منتصف الحجرة التي تتصاعد منها سحابة مثقلة ببخور نتن الرائحة، يُشبه رائحة بقايا جثة تحترق.

مدفوعًا برهبة الخوف قرر الفتى أن ينسحب من هناك، لكن فضوله هزم خوفه في اللحظة الأخيرة وهذا ما دفعه لأن يثبت مكانه ويُكمل ما كان قد بدأه.

نظر آزر إلى باب الدار الذي كانت تلك المرأة ما تزال تطرقه وفكر بسؤال منطقي: كيف سيفتح لها الكاهن شِق الباب وجسده على تلك الحالة ؟!

ولكن الأمر الذي لم يكن يعرفه بعد هو: أن لذلك الكاهن خدمًا من المخلوقات التي لا يُعرف لها كينونة يعكفون على خدمته صباح مساء؛ فقال شِق يأمر أحد خدمه:

- ما جاءت المرأة إلا لأمرٍ إدًّا، افتح لها الباب ننظر في أمرها يا جِدًّا ..*

وما إن انتهى مما قاله حتى فُتح الباب من تلقاء نفسه وانبعث صوت غليظ من الهواء يقول للمرأة:

- ادخلي بقدمك اليُسرى، ورددي سبعًا لبيك شِقا.

دخلت المرأة بقدمها اليُسرى وهي تردد بهمساتٍ خائفة (لبيك شِقا) وظلت تُرددها وهي تواصل طريقها نحو الحُجرة المعتمة، ورغم أن الدار صغيرة وليس فيها أحدٌ غير الكاهن المتكئ بجسده المُنشطر على الحائط أسفل النافذة .. إلا أن تلك المرأة كانت تسمع أفواجًا من الأصوات حولها تُشبه أصوات التهليل والتسبيح، هي أصوات الخدم الذين يعكفون على خدمة الكاهن شِق، تُردد خلفها وهي تقول: (لبيك شِقا، لبيك شِقا) حتى أتمّتها سبع مرات فصمتت وصمتت الأصوات من حولها.

---

* كلمة (إدًّا) تعني أمرًا عظيم.

لقد سبق لتلك المرأة - كغيرها من رجال ونساء مكة - أن شاهدت الكاهن شِق مرة واحدة قبل أعوامٍ طويلة وهو يطوف ليلًا حول الكعبة عكس اتجاه الطائفين، مضطجعًا فوق هودج يحمله أربعة من العبيد في تمام ليلة اختفى القمر من سمائها؛ مما يجعلها الآن لا تتفاجأ بجسده غريب التكوين. لكن وجودها معه في حُجرة واحدة هو ما جعلها تخاف وتهمُّ بالتراجع منسحبة؛ فقال يُطمئنها:

- اقتربي يا زوجة عامر بن لُكيز ولا تخافي؛ إنك في مأمن ما دمتِ جواري.

- أتعرفني ؟

قال وهو يكشف عن ابتسامة شيطانية:

- أعرفكِ، وكل من يدنو من حَرم هذا البيت أعرفه.

من خلال تلك الجملة أدرك آزر أن شِق كان يعلم بوجوده عند النافذة، ورغم انكشاف أمره لم يهرب وقرر البقاء مواصلًا استراق السمع؛ لمعرفة سبب ذهاب المرأة إليه في ذلك الوقت.

- وتعرف ما جئتُ إليك من أجله الساعة ؟!

- لقد أُخبرتُ بأن امرأة تأتي في هذه الليلة القَمراء تقصُّ عليَّ نبأ رؤياها، فاقصصي عليَّ ما رأيتِ.

قالت المرأة تقص عليه نبأ حُلمها الغريب:

- رأيتُ أني ألدُ قمرًا يصعد إلى السماء، يُضيء بنوره جزيرة العرب.

وصمتت لبُرهة من الزمن وكأنها خافت حين تذكرت أحداث حلمها الغريب:

- وماذا أيضًا ؟ - قال الكاهن باهتمام - أكملي ..

٦

الحُلم والنبوءة

قالت المرأة:

– رأيتُ أني ألدُ قمرًا يصعد إلى السماء يُضيء بنوره جزيرة العرب، ثم رأيتُ نارًا عظيمة تندلع من المشرق .. ما زال لهبها يعلو ويتصاعد حتى يصل جُرم القمر.

لا يذكر الكاهن شِق متى كانت المرة الأخيرة التي خاف فيها، لكنه لن ينسى أبدًا شعور الخوف الذي أحسّ به هذه اللحظة وهو يُنصت إليها وهي تقصُ عليه نبأ حلمها.

– والعرب – قال مستفهمًا – ألم تسمعِ للعرب نفيرا ؟

– سمعتُ صلصلة سيوف تتقارع وجلجلة صهيلٍ تتعالى، وصرخة من بين الصفوف جاءت (قالت للحرب قومي)، ثم التقى العرب بخصمٍ عنيد كان مسربلًا بالسلاح والحديد، ذي قِلاع وقوة وجيشٍ مديد .. دار القتال بين الصناديد .. وشبح الموت فوقهم يحصد الخلق والعبيد .. تصاعد غبار المعركة كثيفًا كثيب حتى حجب وراء ستاره جُرم القمر البعيد.

ظهرت على وجه الكاهن علامات أوحت لها بأن حلمها لا يبشر بالخير، وهذا ما دفعها لأن تصمت متوقفة عند ذلك القدر من الحلم، لكن شِق كان ما يزال لديه سؤال أخير:

- أكان القمر مكانه حين انقشع عنه الغبار، أم أنه زُحزح عن مداره؟

- لقد انقطع الحلم يا شِق، ولم أرَ ما حلّ بالقمر.

كان يعلم أنها تكذب بسبب الخوف؛ فقال يتوعدها بالعقوبة:

- تُسخطين إلى ذات أربعٍ وأربعين، إلا أن تقولي الحق ولا تكذبين.

لم تأخذ تهديده على محمل الجد وقالت متمسكة بجوابها:

- لقد انقطع الحلم ولم أرَ ما حلّ بالقمر.

•

لقد وُلد الكاهن شِق في ذات اليوم الذي ماتت فيه كاهنة ذلك الزمان طُريفة بنت الخير الحميرية، قيل إنها قبل أن تموت قد بصقت من ريقها بفمه؛ فانتقل بذلك علم كهونتها إليه .. ليصبح كاهنًا لا تُخطئ له نبوءة؛ وهذا ما دفعها - دفع تليدة - لأن تأتي إليه في هذا الوقت المتأخر لتقصّ عليه نبأ ما رأته في منامها الليلة.

قال شِق مؤوّلًا حُلمها:

تلدين فتاة تُسمينها " قمر " .. تقوم لأجلها معارك وحروب ..

حارسها يا حارسها .. يُخلد اسمه في تاريخ العرب ..

قالت مذعورة:

– وهل ستنجو ابنتي من تلك المعارك والحروب ؟

لم يُجب عليها، فعادت تسأله: هل ستنجو ابنتي مما ينتظرها يا شِق ؟

هنا أرسل الكاهن إليها نظرة حادة فهمت من خلالها أن لقاءها به قد انتهى؛ إدراكها بأن صبره قليل هو السبب الذي جعلها لا تغامر بمواصلة الإلحاح عليه .. فأدخلت يدها في جيب ثوبها ثم أخرجت منه صُرة ممتلئة بالدنانير الذهبية دفعتها إليه واتجهت مغادرة نحو الباب، بينما ظلّ آزر سارحًا في مكانه يُفكر بأمر وحيد:

أيُمكن أن يكون هو حارس ابنتها ؟! فينال بذلك ما نصت عليه النبوءة،

ويحقق أمنيته الوحيدة في تخليد اسمه في التاريخ ؟!!

وبينما هو سارح في خياله إذ امتدت إليه يدٌ خفية ألقت عليه القبض وقذفت به إلى داخل الدار، ليجد نفسه وجهًا إلى وجه أمام الكاهن شِق وحدهما في الحجرة المظلمة التي يتصاعد فيها دخان البخور إلى السقف.

٧

ألجمت المفاجأة لسانه وهو يرى تلك العين الوحيدة تُحدق إليه في الظلام، وقد تلا ذلك صوتٌ خشن هو - صوت الكاهن شِق - آمرًا إياه قائلًا:

- ادنُ مني يا فتى!

أراد آزر الهرب، لكنّ قدميه تحركتا إلى الأمام رغمًا عنه وكأنهما لا تُطيعان رغبته.

مدَّ الكاهن يده الوحيدة نحوه .. لكنّ يده توقفت قبل أن تصل هدفها كما لو أن هنالك شيئًا قاهرًا منعها من الوصول، فأخفض يده وقال:

- يبدو أن أمك تحسن تحصينك يا فتى.

- ولكن كيف لذئبة أن تفعل ذلك ؟!

- أيها الحمار الصغير، لا أقصد أمك الذئبة، بل أمك الإنسية.

ارتفع حاجبا آزر لفرط الدهشة، وقال متسائلًا في لهفة:

- أت .. أتعرف أمي ؟!!

- إنها تراك وتحصنك كل يوم؛ ولذلك لا تستطيع يدي أن تصلك.

قال متوسلًا:

- أخبرني كيف أجدها أرجوك .. أرجوك أخبرني ! ! !

في تلك اللحظة الحاسمة قُذف به - بآزر - إلى خارج الدار بذات اليد الخفية التي أدخلته .. وقد همَّ بتحطيم الباب والدخول ليعاود سؤال الكاهن عن أمه .. ولكن صوتًا ما، هادئ، وقوي، وحنون، في ذات الوقت كصوت المطر، همس في أذنه محذرًا إياه تلك اللحظة من الدخول:

- اهرب يا فتى؛ إنك إن دخلت، لن ترى أملك أبدًا.

كانت تلك الكلمات كافية لأن تجعله يركض مبتعدًا من هناك متخليًا عن فكرة الدخول، دون أن ينتبه إلى الشخص الغامض الذي كان يراقب المشهد من بعيد وهو يخفي وجهه وراء اللثام .. والذي ما إن تأكد من أن آزر قد ابتعد من هناك حتى ترك مخبأه وسار متجهًا نحو دار الكاهن شِق ليطرق بابه.

**

(المرأة المجهولة ذات اللثام)

ما إن فُتح باب الدار حتى ولجت منه امرأة غريبة تغطي وجهها بلثام أسود لا يكشف إلا عن عينين تخبئان فيهما أسرارًا دفينة .. بدت المرأة أنها في الثلاثين من عمرها، تسير بخطوات غير مرتبكة تشي بأن تلك ليست زيارتها الأولى للمكان:

- إلى متى سأظل أخفي عنه الحقيقة يا شِق ؟!

قال الكاهن وهو ينظر إليها بعينه الوحيدة:

- إلى أن يأتي اليوم الذي لا تُهمك فيه حياته؛ فعندما يعرف الناس سِر هذا الصبي، ويعرفوا حقيقة نسبه فإنهم لن يُبقوه على قيد الحياة لحظة واحدة.

- ولكن قلبي يؤلمني عليه.

- اكتمي السر؛ ولا تحفري قبره بلسانك.

لاحقًا وما إن غادرت المرأة الغريبة ذات اللِّثام دار الكاهن حتى طار غراب أسود كان يستقر طوال الوقت فوق غصن شجرة قريبة من الدار يسترق السمع إلى كل ما يدور فيها، لينقل الكلام إلى أذن سيدته التي كانت تنتظره فوق دارٍ وحيدة تستقر فوق قِمة جبل يُدعى (**مجر الكبش**).

٨

صِنديد العرب

كان لدى أهل مكة عادة تُقام مرة واحدة كل خمس عشرة سنة؛ حيث تُنصب بين جبال الوادي حلبة كبيرة للمصارعة، يخوض فيها فتيان القبائل العربية ممن تكون أعمارهم دون الخمسة عشر عامًا. يخوضون فيها صراعًا داميًا للحصول على اللقب **(لقب صِنديد العرب)** .. وقد كان يجتمع لتلك المسابقة حشد كبير من أهل جزيرة العرب وبلاد الشام وأرض الرافدين وسكان قارة إفريقيا، يتخذون من الجبال المحيطة بالحلبة مقاعدًا للجلوس فتغدو وكأنها مدرجات رومانية، يشاهدون من خلالها النزالات بهدف المتعة أو جني الأموال التي تُكسب من خلال عقد الرِهانات على الفتية المتصارعين.

وقد كانت لتلك المسابقة - مسابقة صِنديد العرب - **أهمية عظيمة** في نفوس الملوك والأمراء وشيوخ القبائل وعامة الناس، كيف لا والفائز فيها من أبنائهم يُكتب اسمه على رقعة جلد تُعلق على أستار الكعبة حتى موعد المنافسة القادمة؛ فيذاع اسمه واسم والده وقبيلته بين العرب قاطبة فينال بذلك شرفًا ومنزلة، ومكانة عظيمة.

ولما كان موعد المسابقة قد اقترب راح أهل الوادي بطبيعة الحال ينشغلون بالحديث عنها، وبدأ السادة في التكفل بكل ما يلزم لإعداد حلبات النزال، واستقبال الوفود التي ستضج بهم مكة لمشاهدة الحدث .. وأثناء ذلك كانت المربية السمراء بُثينة .. تقوم بواجباتها اليومية المعتادة من ترتيب الحجرات وتنظيف الدار، وبينما هي كذلك إذ سمعت فجأة أصوات أقدام غريبة آتية من الخارج، في الوقت الذي انبعث فيه بداخلها إحساس غير مريح يخبرها بأن هنالك شيئًا سيئًا قد وقع؛ فألقت مكنسة القش من بين يديها وذهبت لتفتح الباب وتشاهد أمامها آخر من كانت تتوقع زيارته ذلك النهار: كان الزائر هو الذئبة حواء التي قفزت نحوها وعضت بأنيابها طرف ثوبها ثم أخذت تسحبها إلى الخارج وكأنها بذلك تطلب منها أن تتبعها، أدركت بُثينة على الفور أن المسألة متعلقة بآزر؛ وهذا ما دفعها لأن تركض منساقة خلف الذئبة وقلبها يخفق خوفًا مما يكون قد حدث للصبي ..

**

(السـوق)

قادتها الذئبة نحو السوق الذي كان يحتشد في منتصف باحته جمع غفير من الناس حول شيء ما .. قامت بثينة تشق صفوف الزحام مدفوعة بمزيج من الفضول والخوف حتى وصلت إلى ما كان الناس يحتشدون حوله؛ لتشاهد أمرًا جعل ملامح الرعب تعتلي وجهها: **بركة من الدماء يتمدد فوقها آزر وقد استقر في بطنه خنجر حاد.**

حاول أحد العارفين – وهو رجل يعمل مداويًا – أن يتقدم لفحصه، لكن الذئبة انبرت من بين الحشود بطريقة مفاجئة وحاوطت الصبي بجسدها لتدافع عنه معتقدة أنهم يريدون به شرًا؛ فتراجع المداوي إلى الوراء مخافة أن تؤذيه الذئبة الغاضبة، بينما تقدم إليها الشخص الوحيد الذي كان يستطيع تهدئتها وهي بُثينة وقالت تصيح عليها:

– ابتعدي عنه يا حواء ! ! !

تسببت تلك الصرخة بتعزيز نزعة الخوف لدى الذئبة؛ ما جعلها تفقد القدرة على ضبط انفعالها، فقامت بمهاجمة بُثينة وإسقاطها أرضًا بعد أن صنعت في وجهها ثلاث ندبات بمخالبها، صاح أحد الرجال وهو يرى ذلك المنظر:

– هذه الذئبة لا تترك لنا خيارًا آخر.

ثم أخرج سيفه، وفعل بقية الرجال مثله عاقدين العزم على قتلها ..

٩

كانت الذئبة تستطيع الفرار من هناك، ولكنها قررت البقاء وحماية ابنها حتى لا تفقده كما فقدت جروها قبل اثنتا عشر عامًا؛ فحاوطته بقوة أكبر وأغمضت عينيها حتى لا يُصيبها الجزع وهي ترى الموت يقترب منها فتحثها غريزة البقاء لديها على الهرب.

لم تصلها سيوف الرجال،

بل وصلت إليها يدٌ حنونة تبعها صوت معتذر يقول:

– لقد أخفتكِ يا حواء، وما كان يجب أن أصرخ عليكِ هكذا.

فتحت الذئبة عينيها لتشاهد أمامها بُثينة تنظر إليها بوجه أسمر حلو رقيق لم تزده ندبات المخالب وقطرات الدم الخفيفة النازفة منه إلا جمالًا:

– اهدئي يا حواء .. أعدكِ ألّا يؤذيه أحد.

أحست الذئبة بالأمان فتنحت جانبًا، ليتقدم المداوي على الفور ويبدأ بفحص الجرح والجريح قبل أن يُعلن قائلًا:

- لا أظن أنه سيعود إلى الحياة.

ما إن سمعت ثُبَيْنة ذلك حتى سقطت على ركبتيها وتناثرت دموعها على الأرض؛ وظلت تنظر نحو الجسد الساكن أمامها بشعور هو خليط ما بين الحزن الشديد والندم.

حزينة هي على سماعها ذلك الخبر، ونادمة لأنها استمعت إلى الكاهن شِق ليلة أمس، عندما ذهبت إليه مُتلثمة ونصحها بألَّا تخبر آزر بالحقيقة.

**

(العامرية)

وبينما هي تبكي إذ أحست من خلفها بحركة ملحوظة، وبدا الأمر كما لو أن الحشود من خلفها كانوا يفسحون الطريق لشخص قادم .. وبالفعل ما هي إلا لحظات بعد ذلك حتى ظهرت من بين الصفوف امرأة متقدمة في العمر يستقر فوق كتفها الأيسر غراب أسود ..

سارت المرأة بين الناس حتى وصلت إلى آزر وانحنت عليه ..

كان اسمها - **اليَمامة بنت أدحج العامرية** - وقد دارت حولها الكثير من القصص الغامضة التي جعلت البعض يعتقدون أن تلك المرأة ليست حقيقية، بل ربما تكون أسطورة متخيلة. إحدى تلك القصص تقول إن العامرية في صِباها كانت تتمتع بجمال غير مسبوق جعل شيطانًا أسودَ من الجن اسمه (أعصم) يعشقها ويتزوجها.

تقول القصص أيضًا إن ذلك الشيطان قد كشف إليها بعضًا من العلوم المحرم على بني الإنس معرفتها؛ وهذا ما أنزل عليه غضب قبيلته ودفعهم للسعي إلى قتله، ولكنهم لم يقتلوه؛ ذلك أنه اختفى قبل أن يصلوا إليه ولم يستطع أحد حتى اللحظة - لحظة ظهور العامرية في السوق - وعلى كتفها يستقر الغراب الأسود أن يعثر عليه أو يتكهن حتى بمكان وجوده.

ولما راح الناس ينسجون حولها الأخبار الكاذبة والتكهنات المُلفقة المُبالغ فيها؛ قررت العامِرية أن تعتزلهم لتُقيم مع غرابها فوق قمة جبل ليس ببعيد يُدعى (**مجر الكبش**)، وقبل أن تغادر أشار عليها الكاهن شِق الذي كان يعرف حينها مدى حُبها وتعلقها بزوجها قائلًا:

- تمسكي بأستار الكعبة يا عامرية .. واطلبي من آلهة العرب أن ينفثوا فيكِ روحًا من السَلوى والنسيان، تُشفيكِ من بلائك القائم.

وعملًا بتلك النصيحة، سارت العامرية نحو الكعبة، لكنها فعلت بعكس ما أشار عليها الكاهن به؛ حيث جرحت كفيها بسكين حادة، ثم تشبثت بأستار الكعبة بكفيها النازفتين دمًا، وأقسمت بصوتٍ خرج من صميم قلبها:

- قسمًا بالدمِ النازف على الأستار، والدموع الحارقة من تحت الأجفان قسمًا بأحزان الثكالى وأنين اليتامى وقرع الصواعق وأجيج النار .. قسمًا بأوجاع قلبي وجهنم المستعرة بين الضلعان .. قسمًا بالكعبة وبطحائها، ونجد وكُثبانها، والحِجاز وأفلاكها، وبحور الأرض وقيعانها لن أنساك وسأثأر.

لقد شهد الطائفون ذلك القسم وتناقلوه حتى ذاع ذكره في جزيرة العرب كلها. وهذا ما جعل الناس الآن ينظرون بتعجب إلى العامرية، ويتساءلون عن السبب الذي دفعها لأن تحنث بقسمها وتغادر جبل مجر الكبش ذلك النهار لتظهر بينهم في السوق .. تأملت العامرية جرحه وأدركت أن الطعنة التي تلقاها الصبي خطيرة بحق؛ فلو أن صبيًا آخر بعمره تلقاها لكان قد مات على الفور، ولكن يبدو أن حليب الذئاب الذي نشأ عليه في صغره قد أكسبه بعض القوة التي ردعت عنه الموت.

وبينما العامرية تواصل فحصه إذ انتبهت إلى ملاحظة دقيقة لم ينتبه عليها أحد وقالت كما لتتأكد:

- ألمح أحد منكم من هاجمه ؟

أخبرها الناس أنهم لم يشاهدوا المهاجم؛ فكانت تلك الإجابة بالنسبة إليها دليلًا يُثبت صحة الشيء الذي لاحظته .. قامت العامرية بعد ذلك بحمل آزر بين يديها وابتعدت به من هناك، يتبعها بشكل تلقائي كلٌّ من بُثينة والذئبة، بينما يطير فوق رأسها غرابها الأسود فاردًا جناحيه ليُظللها من أشعة الشمس.

بعد رحيلها:

دارت العديد من الفرضيات التي حاول الناس بها أن يجدوا تفسيرًا يشرح سبب قدومها دون أن يتوصل أحد منهم إلى سبب معقول، ولكن الشيء الذي أجمع عليه الأغلبية هو: **أن تلك المرأة لم تغادر معتزلها هذا النهار وتظهر فجأة في السوق إلا لشيء جلل، أيكون ذلك الصبي ابنها ؟!**

لا أحد يعرف ..

١٠

فوق جبل مجر الكبش، وداخل الدار الوحيدة التي تنهض فوق قِمته، قامت العامّرية بتمديد آزر – الفاقد الوعي – فوق السرير، بعد أن نظفت جرحه وقامت بكيّه مستخدمة قطعة من الحديد الحامي، ثم جلست مقابلة له وغرابها الأسود يستقر فوق كتفها الأيسر، وقالت بأسف لبُثينة التي تنتظر سماع الخبر:

– هالته تُنذر باقتراب أجله.

لم تكن بُثينة قد سمعت بذلك المصطلح من قبل – مصطلح الهالة – فبانت الحيرة على وجهها؛ وهذا ما دفع العامّرية لأن تشرح لها: فقامت وأغلقت ستائر الحجرة وأشعلت شمعة كانت تحتفظ بها في أحد أدراجها انبعث منها ضوء أزرق نادر ثم قالت بعد ذلك وهي تُشير نحو الصبي:

– ركزي نظرك إليه الآن ..

نظرت بُثينة إلى حيث أشارت إليها العامرية ولكنها لم تلاحظ شيئًا غريبًا؛ فقد كان آزر - مستغرقًا في غيبوبته - يستلقي أمامها فوق السرير مُحاطًا بجسد أمه الذئبة:

- لا أرى فيه ما يدعو إلى الغرابة.

- انظري جيدًا - قالت العامرية - انظري جيدًا ولا تتعجلي.

عادت تنظر بتركيز نحو آزر وقد استغرقت هذه المرة وقتًا أطول وهي تُحدق إليه، حتى كادت أن تُعلن استسلامها مجددًا، لكنها في اللحظة الأخيرة انتبهت إلى أمر جعل عينيها تتسعان في دهشة وغرابة:

- إنني أرى عجبًا.

- أتستطيعين وصف ما ترين يا بُثين ؟

- إنني أرى نورًا رقيقًا يُحيط بجسده كالسوار.

- هذا النور الذي يُحيط بجسده مثل السوار يُسمى (الهالة) وهي مرآة الروح. كل إنسان حي يملك هذه الطاقة النورانية حول جسده.

ثم أضافت تقول:

- والآن، ركزي نظرك إلى هالته وأخبريني عمّا ستلاحظين.

لاحظت بُثينة أمرًا جعلها تُصاب بنوبة من القلق الشديد:

- الهالة التي تُحيط به !

- ما بها ؟

- إنها آخذة بالتفكك والتلاشي؛ وكأن هنالك قوة خفية تضغط عليها وتحطمها شيئًا فشيئًا.

قالت ذلك، ثم توقفت عن الكلام فجأة؛ إذ إنها أدركت الحقيقة من تلقاء نفسها: **عندما تنتهي الهالة النورانية حول جسد آزر، سيكون قد فارق الحياة إلى الأبد.**

- ألا تستطيعين مساعدته ؟

- أستطيع .. ولكنني لا أعتقد أنه سوف يقبل المساعدة.

- كيف يقبل أو يرفض وهو غائب عن الوعي ؟

- جسده غائب، لكن روحه تُدرك ما حولها.

- اقنعيها بالعودة إذًا.

- الأمر ليس بهذه البساطة، فالأرواح تُصبح حرة بعد خروجها من الأجساد؛ ويكون من الصعب إقناعها بالعودة. إن الأمر في هذه الحالة يشبه ذهابك إلى سَجين نال حريته لتوه، فتحاولين إقناعه بالعودة إلى سجنه مجددًا.

- لقد عانى هذا الصبي كثيرًا في حياته أيتها العامرية؛ لقد هجرته والدته وهو ما يزال رضيعًا .. فوجد نفسه يعيش تحت رعاية هذه الذئبة وسط الجبال والوديان مثل حيوان منبوذ .. ومن غير المعقول أن نتركه الآن يموت بهذه الطريقة دون أن يحظى بفرصته الكاملة في الحياة.

حركت تلك العبارة شيئًا في قلب العامرية، شيئًا يُشبه الحنان الذي يربط الأم بابنها، وهذا ما دفعها إلى أن تتجه نحو الذئبة التي كانت ما تزال تحاوط آزر وتقول لها:

- ما رأيكِ يا حواء أن ترافقيني في هذه المحاولة ؟

هنا اندهشت بُثينة مما رأته: فمن المعروف أن الذئبة حواء لا تتقبل الغرباء
وتظهر تجاههم عداوة مفرطة، ولكنها الآن تتقبل العامرية بشكل غريب
وتُظهر لها سلوك الودِ والأُلفة. مدّت العامرية يدها ومسحت بها جبين الذئبة؛
وهنا تعاظمت دهشة بُثينة حين لمحت وشمًا عجيبًا يومض في جبين حواء
كأنه الشمس والقمر ثم يختفي:

- ما هذا الوشم الذي ومض في جبين حواء ؟

- إنه ختم انتمائها لسُلالة نبيلة، تُسمى السُلالة اليعقوبية.

ظلت بُثينة صامتة تنتظر الشرح، بينما أكملت العامرية تخبرها عن قصة
تلك السُلالة:

- لقد جاء في كتاب (الحَبر) أن ..

ما إن سمعت بُثينة اسم "الحَبر" حتى أصاخت السمع أكثر لما سيُقال.
فمن المعروف أن ذلك الكتاب النادر يحوي قصة الخلق وأنبياء الأرض كما
ورد ذكرها في توراة موسى وإنجيل عيسى وتلمود اليهود. قليلون فقط من
يملكون كتاب الحَبر وقد كانت العامرية واحدة منهم.

قالت العامرية:

- عندما ضاق الإخوة العشرة ذرعًا بأخيهم الأصغر مكروا له وألقوه في
البئر، ثم عادوا مساءً لأبيهم يحملون قميصًا مُلطخًا بالدماء ليخبروه أن
الذئب أكل أخاهم يوسف؛ في تلك الليلة يا بُثينة، وبينما كان النبي يعقوب
يبكي حزنًا على فقد ابنه، إذ جاء إليه زائر غريب.

- من يكون الزائر ؟

قالت تخبرها عن الزائر:

- كان أمير زُمرة الذئاب، وقد أنطقه الله حيث كلم النبي يَعقوب بهذه الكلمات قائلًا: " **إنني وزُمرتي أبرياء من دم ابنك يوسف؛ فقد حرّم الله علينا دماء الأنبياء** "

وأصلت العامرية وهي تُربت على رأس الذئبة حواء وتقول:

- هذه الذئبة يا بُثينة تنحدر من سلالة ذلك الذئب الذي كلم النبي يَعقوب؛ وهذا الوشم الذي رأيته يومض في جبينها هو ختم انتمائها لتلك السلالة النبيلة.

بُثينة تدرك أن الموقف الحساس الذي هم فيه الآن لا يتسع لذكر مثل تلك القصة، ما لم تكن مهمة في هذا التوقيت:

- ما علاقة هذه القصة بآزر ؟

- يتميز أفراد السلالة اليَعقوبية بصفاء هالة روحية نادرة تجعلهم قادرين على أن يكونوا مثل المراكب الشراعية التي تنقل العابر من ضفة إلى أخرى.

قالت مستنتجة:

- هذا يعني أنكِ سوف تمتطين حواء للذهاب إلى حيث هالة آزر ؟!

- نعم؛ فإنها الوحيدة القادرة على أن تنقلني إلى هناك.

- وكيف ستقنعيه بالعودة ؟

- لا أعرف، ولكنني سأحاول.

قالت عبارتها تلك ثم تربعت في منتصف الغرفة، فجاءت الذئبة حواء تجلس إلى جوارها وكأن فطرتها كانت تخبرها بما يجب عليها أن تفعل استعدادًا لتلك الرحلة.

قالت العامرية:

- كل ما أحتاجه منكِ في الساعة القادمة يا بُثينة هو أن تبقي ساكنة مهما حدث، وألّا تمسي أيًا من أجسادنا مهما كانت الظروف حتى لا نُحبس في العالم الآخر إلى الأبد.

- لن أقرب جسديكما مهما حدث.

هنا أغمضت العامرية عينيها وبدأت تتمتم ببعض الكلمات.

كانت بُثينة وهي تُصغي إلى تلك التمتمات تُدرك جيدًا أنها ليست بنفثات الكهانة، أو طلاسم السحر إنما هي تراتيل خاصة لم يسبق أن سمعت بمثلها يومًا.

لم يمضِ وقت طويل على ذلك حتى صمت فم العامرية، وراحت تضع جُل تركيزها على فعل شيء واحد مُحدد وهو ما يسميه الضالعون في العلم بطور الإسقاط:

وهو إسقاط الروح عن جسدها والتحرر منه.

***

وما هي إلا لحظات بعد ذلك حتى شاهدت بُثينة أغرب مشهد كانت تراه في حياتها، وما كانت ستصدقه لو أنها لم تره بنفسها: حيث رأت شيئًا أشبه بالهالة الزرقاء النجمية تنفصل عن جسد العامرية .. وتمتطي هالة زرقاء نجمية أخرى انفصلت عن جسد الذئبة حواء .. ثم رأتهما وهما تنطلقان بسرعة السهم تتبعهما هالة نجمية ثالثة – هي للغراب – نحو آزر الممدد فوق السرير لتغوص الهالات الثلاثة معًا في جسده عند موضع القلب وتختفي داخله ..

وهكذا لم يبقَ في الحجرة سوى ثلاثة أجساد هامدة؛ أجساد العامرية والذئبة والغراب، تجلس أرضًا وتتنفس ببطء، بينما ينبعث من كل واحدٍ منها خيطٌ نجميٌ أزرق ينتهي عند موضع قلب آزر. أثناء ذلك المشهد العجيب كان على بُثينة أن تنتظر نتيجة ما سيحدث في صمت وصبر وترقب.

١١

يحسب الإنسان نفسه جرمًا صغيرًا وفيه ينطوي العالم الأكبر[٦]

انتقل الثلاثة إلى العالم الخاص بآزر، وساروا فيه يقطعون السماء والبحور والقِفار، حتى وصلوا إلى قمة جبلٍ عالٍ كان يجلس على حافته فتىً صغير يُمرجح قدميه في الهواء، بينما يبتسم سعيدًا وعيناه تُحدقان إلى الفراغ.

ما إن أحس آزر بقدومهم حتى هرب من هناك، كادت الذئبة أن تتحرك لملاحقته، لكن العامرية أمرتها بعدم التحرك؛ فهي تُدرك تمامًا حساسية الموقف: إنهم الآن داخل العالم الخاص بآزر. وبالتالي، فإن أي خطأ يُقدمون عليه قد يُعرضهم للطرد الأبدي. لذلك عليهم أن يتصرفوا بحكمة إن كانوا يُريدون تحقيق الهدف الذي جاؤوا من أجله.

---

٦ النص الأصلي للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر "

وبالرغم من أن آزر كان قد هرب من هناك، إلا أن العامرية تُدرك بفطنتها أن فضوله لن يسمح له بالابتعاد كثيرًا؛ وعليها فقط أن تُلقي إليه بالطُعم المناسب لتغريه على إظهار نفسه:

- لماذا طعنت نفسك اليوم في السوق يا آزر ؟

بانت ملامح القلق على وجهه وهو يختبئ خلف صخرة قريبة، وتساءل في نفسه عن الطريقة التي عرفت بها تلك المرأة سره رغم أنه كان قد تلفت حول نفسه أكثر من مرة ليتأكد من أن أحدًا لا يراه قبل أن يُنشب نصل الخنجر في بطنه.

قال وهو يكشف عن مخبئه:

- كيف عرفتِ أنني من طعنتُ نفسي ؟

- لأنه ليس من المعقول أن تتلقى مثل تلك الطعنة وسط سوق يضج بالباعة والزبائن، دون أن يلمح أحدٌ منهم هوية المهاجم. ثم بالنظر إلى زاوية الطعنة ومدى عُمقها في جسدك، يتضح جليًا أنك من أقدمت على طعن نفسك بنفسك.

صمت آزر وأخفض رأسه؛

فكان صمته ذاك دليلًا على اعترافه بأنه الفاعل:

- أتظن أن ما فعلته كان صوابًا ؟

دون تردد، همس قائلًا:

- لا ..

ثم مكث ينتظر من تلك المرأة الغريبة سيل الكلمات المعاتبة والنصائح التي لا تنتهي كما تفعل معه مُربيته بُثينة في العادة عندما يتصرف بطريقة خاطئة، ولكن على عكس ما كان يتوقع؛ أظهرت المرأة تفهمًا نادرًا وهي تقول:

- أنا لا ألومك؛ فلا بد أنك تملك أسبابك الخاصة.

عند الاعتراف بالخطأ يفوز الذي يتفهم، الذي يعذر، الذي يُسامح لا الذي يَكيل العتابات والنصائح.

- ولكن أتستطيع أن تخبرني عن السبب الذي دفعك لهذا ؟!

ردة الفعل المتفهمة تلك التي أبدتها المرأة الغريبة، كانت هي الدافع الذي جعل آزر يشعر بالراحة تجاهها فيقترب ويجلس أمامها دون حذر ويخبرها عن السبب:

- لقد أخبرني الكاهن شِق أن أمي تراني كل يوم.

على الرغم من فراسة العامرية ونباهتها، إلا أنها لم تفهم كيف لخبر كهذا أن يجعله يُقدم على تلك الفعله:

- وكيف لخبر كهذا أن يدفعك للقيام بطعن نفسك ؟

فتح آزر فمه ليجيب ولكنه غصَّ بدموعه فصمت؛ هو الذي حرامٌ في شريعته أن يبكي أمام أحد؛ اختار أن يصمت لأنه خاف أن يفتح فمه فتذرف عيناه الدموع أمام الغريبة.

كانت لحظة الصمت تلك هي ما أعطت العامرية الفرصة لتحاول تخمين الإجابة بنفسها؛ وما هي إلا لحظات بعد ذلك حتى اتسعت عيناها في دهشة عندما توصلت إلى الإجابة: **فبعد أن أخبره الكاهن أن أمه تراه كل يوم؛ ذهب إلى السوق وتعمد أن يطعن نفسه في وضح النهار، معتقدًا أنه بذلك سوف يُثير غريزة العاطفة لدى أمه الإنسية ويدفعها للكشف عن هويتها عندما ترى ابنها يسقط في السوق بطعنة الخنجر، ولكن أمه لم تأتِ فكان عدم قدومها بالنسبة إليه أشدَّ ألمًا من الطعنة نفسها.**

- السادة والعبيد، النساء والرجال، الشيوخ والفتيان، كل الناس يكرهونني ورغم ذلك جاؤوا لرؤيتي في السوق حين أُصبت .. كلهم جاؤوا إلا أمي .. أتعتقدين أنها تكرهني أكثر منهم لذلك لم تأتِ ؟

لا تذكر العامرية متى كانت المرة الأخيرة التي هزها شيء مثل هذه المرة؛ وهذا ما جعلها ترغب بمساعدته أكثر:

- أعلم أن الأمر يؤلمك؛ فلا شيء أقسى من شعور التخلي، ولكن عليك ألَّا تتعجل بالحكم عليها؛ فالوقت يمضي في عجلة دائرية .. دعه يمضي الآن وسيعود إليك يومًا بالحقيقة.

- لا توجد حقيقة تشفع لأم ذنب هجر ابنها الرضيع.

اقتربت العامرية منه بينما غرابها يستقر فوق كتفها الأيسر، راحت حواء تحيط به كما لو أنهم جميعًا يوفرون له الدعم. قالت وهي تنظر إلى عينيه المُعتقتين بالحزن:

- كان هنالك رجلٌ أراد أن يقطع الضفة الأخرى من البحر؛ فتبرعت إحدى السفن بنقله دون مقابل، وبينما كان البحارة منشغلين في أعمالهم، عمد ذلك الرجل إلى خلع أحد الألواح الخشبية، ما عرّض السفينة للغرق .. أخبرني يا آزر عن رأيك بهذا الرجل وبما قام بفعله ؟

- جاحد، ناكرٌ للمعروف.

- لكن الرجل لم يصنع ذلك الأمر عبثًا؛ لقد أفسدها لأنه يعلم بأن هنالك ملكًا وراءهم يأخذ كل سفينة غصبًا؛ فأراد بصنعته تلك أن يَعيب السفينة، فلا يجد الملك فيها ما يُغريه لسرقتها .. أخبرني الآن يا آزر: أما تزال ترى ذلك الرجل جاحدًا، ناكرًا للمعروف ؟

- لا.

- ما الذي جعلك تغير حُكمك عليه بهذه السرعة ؟

- لأني عرفت الحقيقة.

وبعد أن نجحت في إيصال درسها إليه؛ انعطفت به نحو الموضوع الأساسي قائلة:

- ربما كان الكاهن شِق مُحقًا حين قال إن أمك تراك كل يوم .. ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنها قادرة على إظهار هويتها لك، فربما كان لديها سرٌ يمنعها من فعل ذلك يا آزر .. وقد يكون هذا السر أيضًا هو ما دفعها للتخلي عنك في الماضي، وهو نفسه ما يدفعها في الوقت الراهن لأن تواصل تخفيها عنك.

وصمتت قليلًا كيما تتيح لعقله الفرصة ليستوعب كلامها قبل أن تواصل قائلة:

– لا تكن كالحمار تحمل أسفار الماضي على ظهرك؛ فمن يحمل الماضي تكبو قدماه .. اعتزل ما لا يسعك تغييره إلى ما يسعك فعله. وفكر في مستقبلك وفيما يجب عليك أن تصنعه اليوم لتكون ما تريد أن تصبح عليه غدًا.

قال معاندًا:

– لا أريد أن أكون شيئًا مهمًا.

– لا أعتقد أن هذه كانت رغبتك بعد أن استمعت إلى نبوءة الكاهن شِق، أليس كذلك ؟

بدهشة:

– عن أية نبوءة تتحدثين ؟

أجابته بذات الكلمات التي نصّت عليها نبوءة الكاهن:

" تلدين فتاة تُسمينها قمر .. تقوم لأجلها معارك وحروب

حارسها يا حارسها .. يُخلد اسمه في تاريخ العرب "

– كيف عرفتِ بهذه النبوءة ؟

– ليس مهمًا أن تعرف، المهم هو أن تخبرني عما إذا كنت تُريد أن تُصبح حارس الفتاة التي سيكون اسمها قمر أم لا ؟

١٢

حارس القمر

قال دون تردد:

- نعم، أريد أن أخلد اسمي في تاريخ العرب ولكن كيف لفتىً مجهول عديم النسب مثلي أن ينال ذلك المجد ؟

- خطوتك الأولى في هذا الطريق ستكون عبر فوزك بلقب صِنديد العرب؛ فهذا اللقب هو الذي سوف يجعل لك مكانة بين الناس كافة وأهل الوادي خاصة، وهو الذي سوف يُمهد لك الطريق لاحقًا لأن تكون حارس القمر الذي سوف يخلد التاريخ اسمه.

- ولكن جميع المشاركين في المسابقة سوف يجلبون أقوى فرسان الجزيرة وما حولها من ممالك وأصقاع لتدريب أبنائهم على فنون الحرب والقتال؛ وهذا ما سيجعلني الخصم الأضعف بينهم.

- هنا يأتي دوري.

- عن أي دور تتحدثين ؟!

- أنا سأكون مدربتك.

قال مستهينًا:

- أقول لكِ أنهم سيجلبون أقوى الفرسان من أصقاع الجزيرة وما حولها، بل وربما يجلب الآباء لأبنائهم مدربين من فارس والروم واليمن وما حولها بينما أنا تدربني امرأة ؟!

مدت العامرية يدها الهزيلة المخضبة بنانها بالحناء وقالت:

- وافق على شرطي يا فتى، وسأجعلك تحوز اللقب.

- لماذا أراكِ تتحدثين بكل هذه الثقة ؟

- لأنك إن كنت تعتقد أن البطولة حِكر للرجال، فعليك أن تعرف أن النساء مصانع الأبطال.

دفعته ثقتها بنفسها إلى أن يمد يده نحوها مصافحًا، ولكنها أبعدت يدها في اللحظة الأخيرة ولم تصافحه:

- هنالك شيئان يجب أن توافق عليهما أولًا.

- ما هو الشيء الأول ؟

- الطاعة التامة.

- موافق، ماذا عن الشيء الثاني ؟

قالت:

- الشيء الثاني هو أنك لن تحبني وأنا لن أحبك، ولن تعطف عليّ ولن أعطف عليك. أنا بالنسبة إليك امرأة تقوم بتدريبك لأجل وضعك على المسار الصحيح الذي إن اتبعته بطريقة صحيحة فسوف تصل الى حُلمك غدًا.

قال يُردد شرطها كما ليُثبت لها مدى جديته:

- لن أحبك ولن تحبيني، ولن يعطف أحدنا على الآخر، أنت بالنسبة إليّ امرأة تقوم بتدريبي لوضعي على المسار الصحيح الذي إن اتبعته بالطريقة الصحيحة سأصل إلى أن أكون حارس القمر. أنا موافق.

- لم ينتهِ الأمر يا فتى، فهنالك ما ستدفعه مقابل تدريبي لك.

- ولكنني لا أملك ما أدفعه لكِ ! ولو عرضتِني في سوق النِخاسة للبيع، لما دفع أحدٌ عليَّ درهمًا واحدًا.

- ليس مالًا تدفعه، بل عهدًا تقطعه.

ردد آزر خلفها متعجبًا:

- عهدًا أقطعه ؟

- نعم وإنه الأهم؛ وهو ما دفعني لأن أغادر جبل مجر الكبش.

- وما هو هذا العهد الذي يُهمك إلى هذا الحد ؟!

- وافق عليه الآن وسأخبرك به لاحقًا.

- ولكن كيف أتعهد لكِ بتنفيذ شيء لا أعرفه ؟!

- هذا شرطي أيها الفتى.

قالت العامرية ذلك ثم عادت تمد يدها الهزيلة المخضب بنانها بالحناء وتسأله:

- أأنت موافق ؟!

ظلت يدها ممدودة في الهواء لمدة طويلة وآزر ينظر نحوها بتردد،

إنه لا يعرف ماذا عليه أن يصنع، أيتعهد لها بشيء لا يعرفه ؟! ..

أم يظل عالقًا في عالم الموت إلى الأبد ؟!

الباب الثاني

١

في صباح اليوم التالي، وعند ارتفاع قرص الشمس من وراء قمم الجبال الحجازية، تفاجأ أهل الوادي بمشهد جعل الجميع يُحدق نحوه بتعجب، فقد شاهدوا اليمامة بنت أدحج العامرية تسير وسطهم وغرابها يطير فوق رأسها فاردًا جناحيه يُظللها من أشعة الشمس، بينما يتبعها آزر والذئبة وجميعهم يتجهون نحو التلة التي تنتصب عليها قاعدة خشبية ضخمة عُلِّق عليها طبل كبير يُسمى طبل النداء.

توقفت العامرية عند سفح التلة ونظرت نحوه:

- اذهب وأفعل كما أخبرتك يا آزر.

- أخاف ألَّا يقبلني أحد.

وضعت يدها على كتفه وقالت:

- راقب كلماتك أيها الفتى .. فما تؤمن به حيال نفسك هو ما يُحدد المكان الذي سوف تصل إليه أقدامك غدًا؛ هذا هو درسك الأول: على قدر إيمانك بنفسك تتسع لك رقعة الأرض.

كان قرع الطبل يُعد بمثابة طلب الانضمام إلى المسابقة. يكفي أن يوافق عليه سيدٌ واحدٌ فقط فيكون قارع الطبل بذلك قد نال القبول الرسمي للمشاركة في نِزالات صناديد العرب، ولكن ما إن تقدم آزر وأصبح يقف على بعد ذراعٍ من الطبل حتى خارت عزيمته؛ إنه يدرك أن السادة لن يقبلوا بواحد مثله، وهذا ما جعله ينظر إلى الوراء بنظرة منكسرة ويهمس قائلًا:

- دعينا نرجع، أرجوكِ.

في الجهة المقابلة كانت العامرية تدرك أهمية تلك المسابقة؛ وتدرك أن فوزه فيها سيجعل له مكانة بين العرب، ويُمهد له الطريق لأن يصبح حارس القمر فينال اسمه الخلود في التاريخ، ولذلك هو بحاجة لحافزٍ خاص يشجعه على قرع الطبل:

- سوف يمتلئ بطن الوادي بالزوار من جميع أصقاع الأرض لمشاهدة النزالات. والدتك قد تكون ضمن الحضور؛ فتشاهدك وأنت تقاتل وتنال اللقب، ألن يكون ذلك شيئًا رائعًا ؟

كانت تلك الكلمات كافية لأن تشحذ همة الفتى وتجعله يمسك بعصاتي الطبل، ثم يبدأ بالقرع مُعلنًا عن طلب انضمامه وقلبه يكاد يطير فرحًا بهذا السؤال: أيمكن لأمي أن تراني فعلًا وأنا أقاتل ؟

٢

على وقع أصوات القرع غادر السادة (دار الندوة) لينظروا إلى المتقدم، ولكنهم ما إن رأوه حتى أشاحوا بوجوههم عنه؛ في علامة واضحة على رفضهم قبوله ..[٧]

لم يستسلم في البداية وواصل القرع دون توقف،

ولكن وقتًا طويلًا مضى دون فائدة؛ الأمر الذي جعل الحزن يتسلل إلى قلبه؛ فأغلق عينيه لفرط الخيبة بينما بدأت عزيمته ترتخي شيئًا فشيئًا كما لو أن يأس أعماقه قد انعكس على يديه حتى توقفتا أخيرًا عن القرع، ثم التفت نحو العامرية وهو يهمس لها معاتبًا لائمًا وفي عينيه تحتشد دموع اليُتم:

- قلتُ لكِ دعينا نرجع.

---

٧ (دار الندوة) هي مقر لتنظيم وإدارة شؤون مكة، يجتمع فيه السادة والشيوخ لتبادل الرأي والمشورة.

كانت المفاجأة هي رؤيته للعامرية تبتسم، لم يفهم في البداية سر تلك الابتسامة حتى أشارت له بإصبعها المخضب بالحناء حيث كان يقف السادة وقالت:

- انظر هناك.

استحالت ملامح الخيبة فيه إلى ابتسامة عذبة وهو يرى أحد السادة وقد رفع يده معلنًا الموافقة على طلبه في اللحظة الأخيرة؛ فمسح دموعه وكاد أن يعانق العامرية ولكنها منعته - منعته لحرصها على غلق أي ثقب قد تتسلل منه المشاعر بينهما - غير أنه اندفع نحوها على الرغم منها وهو يعانقها ويقول:

- هذه المرة .. هذه المرة فقط !

في الحقيقة، كانت أعماق العامرية سعيدة بذلك العناق رغم وجهها الذي أظهر عكس ذلك .. تُرى ما الذي تخبئه تلك المرأة وراءها من أسرار ؟ كان هذا هو التساؤل الذي تطرحه بُثينة على نفسها وهي تراقب المشهد من بعيد.

**

(دار الندوة)

داخل دار الندوة بدت الوجوه - وجوه السادة - غير راضية وهي تنظر نحو الحارث بن الأجهر الذي كان قد رفع يده قبل قليل ووافق على مشاركة آزر في مسابقة صنديد العرب.

قال صاحبه وأقرب السادة إليه، السيد (عبد هُبل) يعاتبه:

- صبيٌّ من العوام لا نسب له ولا أصل، تقبل به في مسابقة يُشارك فيها أبناء الأمراء والشيوخ ؟!

أجاب الحارث بكلمات حيرت عقولهم:

- واللات والعُزّى ما صنعت ذلك إلا من أجلكم.

تلفت السادة حول بعضهم البعض وهم لا يفهمون مقصده؛ فأكمل:

- لقد ضُقنا بهذا الصبي ذرعًا بيننا يا قوم، والشيء الوحيد الذي يمنعنا من إراقة دمه هو كفالة سيدنا نُمير بن رَبيعة له قبل وفاته .. وإن اشتراكه في هذا الصراع لهو ما سوف يمنح الفرصة لأحد أبنائنا بقتله دون أن يلومنا أحد على ذلك.

تبدلت الوجوه غير الوجوه وقد انعكس عليها الرضى، ولكن هاجسًا مخيفًا خطر ببال أحدهم تلك اللحظة؛ فقال يشاركه مع الجميع:

- ألا تخشى أن تمنحه العامرية قوة شيطانية تجعله يتغلب على أبنائنا في النِزالات وينال اللقب ؟!

قال الحارث طاردًا ذلك الهاجس من رؤوسهم:

- لا تنسوا أن كَهنة مكة والطائف ويَثرب[8] سوف يشهدون معنا جميع النزالات، فإن كان هنالك أثرٌ للسحر أو الشعوذة فسوف يأتينا أمره.

---

٨ (يَثرب) هو الاسم القديم للمدينة المنورة.

ولما كان الشيء بالشيء يُذكر، قال أحد السادة ناطقًا بما يردده الناس هذه الأيام:

- أتكون العامرية هي والدة الصبي ؟!

وقال آخر معززًا تلك الفرضية:

- لو لم تكن والدته لما حنثت بقسمها وغادرت معتزلها .. إنها وحق ما آمنت به العرب أمه .. وقد جاءت مدفوعة بتأنيب الضمير تريد أن تكفر عن ذنبها بعد أن تخلت عنه وهو طفل رضيع.

في تلك اللحظة انبعث صوتٌ من أقصى الدار لسيدٍ مسن يقول:

- ليس المهم أن نحدد نسب الصبي يا قوم، المهم أن يضمن لنا الحارث ألّا تُحسن العامرية تدريبه فيفوز .. تالله لئن فاز لتكونن تلك وصمة العار وسُبة الدهر.

التفتت الرؤوس نحو الحارث الذي قال مؤكدًا ودون تردد:

- لن يَبلغ البربري تلك المَنزلة وسوف يخسر من أول لقاء؛ فالعامرية وإن حيكت حولها القصص؛ فهي ليست سوى امرأة لا تجيد غير الطبخ وكنس الغبار.

ضحك السادة من تلك الطرفة إلا هو - الحارث - الذي لا يعرف حتى الآن أية قوة شيطانية ورطته وجعلته يوافق على قبول ذلك الفتى في المسابقة رغمًا عنه.

٣

آزر والعامرية

جبل مجر الكَبش[٩]

ليلة قمراء ذات نسيم عليل يحمل على متنه أريج وادي مكة المحمل برائحة السِدر والطين وبقايا مطر هطل ليلة البارحة، جلست العامرية مقابلة لآزر فوق الجبل وقالت:

- الألم جزء من النجاح الذي ينتظرك غدًا، جزء من الأسطورة التي سوف تصنعها بنفسك لنفسك، ليس بوسع المرء أن ينال المجد دون أن يدفع نصيبه من الألم.

وكأنما قد أُعجب بكلامها؛ فأراد أن يردده ليحفظه:

- ليس بوسع المرء أن ينال المجد دون أن يدفع نصيبه من الألم.

هنا بدأ هتان مطر خفيف يتساقط عليهم؛ في الوقت الذي ألقت فيه العامرية سؤالها هذا:

- أتعرف سبب تسمية هذا الجبل باسم مجر الكبش يا آزر ؟

٩ يسمى أيضًا جبل ثَبير، ويُطلق أهل مكة عليه جبل مجر الكبش.

قال ورشات المطر تُبلل شعره ووجهه الأمرد الوسيم:

- لا أعرف.

قالت تخبره عن سبب التسمية:

- عاش النبي إبراهيم لسنوات طويلة دون أبناء .. ثم رزقه ربه بولد أسماه إسماعيل، وعندما كبر إسماعيل، جاء الوحي للنبي إبراهيم في منامه يأمره بذبح ابنه.

اتسعت عينا آزر في ذهول وهو يقول:

- وما صنع إبراهيم ؟

- لقد أخبر ابنه بشأن تلك الرؤيا.

- وما قال الابن ؟

- قال افعل ما تؤمر به يا أبتي، ولن أعصي لك أمرًا؛ فتناول إبراهيم السكين وسحبها على عنق ابنه.

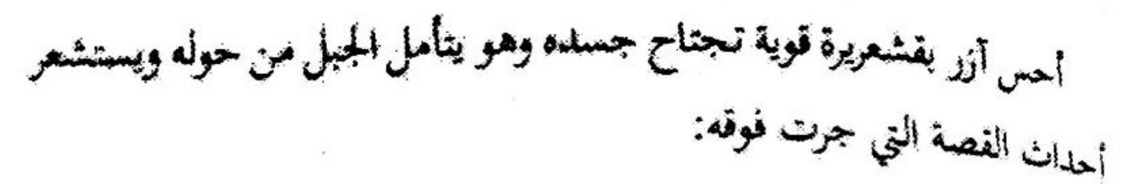
ارتاع آزر وفمه ينطق بما خاف منه:

- وقتله ؟

- لا، فالسكين لا تقطع دون أمر ربها.

- ما الذي حدث إذًا ؟!

- لقد جاء النداء الإلهي من السماء؛ وحين تطلع النبي إبراهيم نحو الأعلى شاهد فحل كبش أقرن يهبط إليه فوق الجبل ليذبحه بدلًا عن ابنه؛ وقد دارت أحداث هذه القصة هنا فوق قمة هذا الجبل الذي نقف عليه؛ ولذلك يُطلق أهل الوادي عليه اسم جبل محجر الكبش.



أحس آزر بقشعريرة قوية تجتاح جسده وهو يتأمل الجبل من حوله ويستشعر أحداث القصة التي جرت فوقه:

- أتعلم كيف اجتاز النبي إبراهيم ذلك الاختبار الصعب يا آزر ؟

- كيف ؟!

لقد اجتازه بالثقة – وأضافت تشرح له: الثقة في اتّباع ما يُوحى إليه، وعليك أنت أيضًا أن تثق في اتباع ما يُوحى إليك.

- ولكنني لستُ نبيًا ليوحى إليَّ.

- صوتك الداخلي هو وحيك الخاص؛ الذي يخبرك بأنك مميز، وذكي، وشجاع، وقادر على تحقيق أهدافك مهما كرهك الناس وكادوا لك وحاولت الحياة منعك .. وهذا هو درسك الثاني، مفهوم ؟!

- مفهـ ..

لم تعطه فرصة إتمام كلمته حتى باغتته بلطمة قوية على رأسه جعلته يصيح من ألمها، ويقول وهو يتحسس مكان الضربة:

- لو لم تكوني امرأة لكنت وجهتُ لكِ مثلها، لماذا فعلتِ ذلك ؟!

- لأن درسك الثالث قد بدأ: وهو أن الضربة قد تأتيك دومًا في الوقت الذي لا تتوقعه؛ لذا عليك أن تُبقي حواسك دائمًا يقظة حتى تتفادى الضربات الغادرة.

- ألم يكن بوسعك أن تُخففي الضربة قليلًا ؟!

- لا؛ فكلما كان الألم أكبر كلما كان نصيبك من العلم أكثر.

وبينما آزر ما يزال يتحسس موضع الضربة إذ وجَّهت إليه العامرية ضربة أخرى أشد قوة من المرة السابقة جعلته يسقط أرضًا لفرط شدتها، وحين نظر إليها وهو يحاول كبت دموعه رآها وهي تنظر إليه ببراءة وكأنها لم تصنع شيئًا وثمة ابتسامة مستفزة على وجهها؛ فوجد نفسه يقول:

- أتعلمين ؟! .. كنت أخاف أن أُقتل في نِزالات صناديد العرب.

- والآن ؟

- لم أعد أخاف.

- لأنك أصبحت أكثر ثقة بنفسك، أليس كذلك ؟

- بل أكثر ثِقة في أنني سأموت على يديكِ قبل بدء النِزالات.

ضربته العامرية للمرة الثالثة على رأسه بقوة فاقت المرتين السابقتين، ورغم أنه بدا غاضبًا أمامها مستعدًا لإطلاق يديه للانتقام، إلا أنها قرّبت وجهها منه بكل برود وهي تقول في ثقة:

- لقد أخبرتني قبل قليل أنني لو لم أكن امرأة لكنتَ ستضربني، وبذلك تكون قد كشفت لي نقطة ضعف استطعت أن أضربك من خلالها؛ درسك الرابع هو ألّا تخبر أحدًا عن نِقاط ضعفك.

- أرجو أن تُخففي الضرب قليلًا؛ كيلا أُشل على يديكِ.

مدت العامرية يدها نحوه؛ فأساء آزر التقدير وأعتقد أنها ستضربه مجددًا فأغمض عينيه وحمى رأسه بذراعيه .. كان منظره مضحكًا ولكنها كبتت ضحكتها وقالت:

- لن أضربك، هات يدك فقد تأخر الوقت؛ وغدًا ينتظرنا يوم حافل.

- أأثق بك، أم أنه ينتظرني درس خامس ؟

لقد ضحك قلبها بلا شك، ولكنها كانت تُحسن إبقاء وجهها جامد الملامح:

- هات يدك يا ولد.

أمسك يدها واستند عليها ليقف، قالت وهي تنظر إلى عينيه:

- لا أريدك أن تنسى العهد الذي قطعته لي.

- لو أنك فقط تخبرينني به.

- سأخبرك عندما يحين وقته، ولكنني أريد أن أتأكد بأنك لن تُخلف تنفيذه مهما كان صعبًا.

- آزر لا يحنثُ بعهدٍ قطعه لأحد، وهذا هو درسك السادس.

أشاحت بوجهها عنه؛ ذلك أنها لم تكن تريده أن يرى ابتسامة الإعجاب التي ارتسمت على ثغرها؛ فهي لا تريد أن تجمعها بذلك الصبي الصغير أي شيء - ولو كان تافهًا - من شأنه أن يُدخل العاطفة بينهما .. وبينما كانت مُشيحة بوجهها إذ لمحت قطًا أسود يتلصص عليهما من بعيد؛ فقالت تأمر آزر:

- اذهب إلى المنزل، وسألحق بك لاحقًا.

ما إن ابتعد آزر من هناك حتى راح القط الأسود يدنو من العامرية مقتربًا، وقد كان في كل خطوة يخطوها نحوها ينتصب فيها ظهره وتتمدد فيها أطرافه حتى استحال إلى نفرٍ من الجن يقف أمامها على بعد متر، متجسدًا بهيئة شاب يرتدي ثيابًا عربية:

- أما زال جميل المُحيا غاضبًا ؟!

- أما تزال تراني جميلة رغم هذه التجاعيد التي وخطها الزمان على وجهي، ورماد الشيب هذا الذي زحف إلى روحي وليل شعري ؟!

- عين العاشق ترى الجمال في كل شيء أيتها العامرية.

ابتسمت في خجل؛ فعاد يسألها:

- أما زال جميل المُحيا غاضبًا ؟!

- عشرون عامًا وأنت تسألني كل يوم، أما مللت هذا السؤال ؟

- وسأظل أسألك حتى يمل صبركِ وتسمحين لي بالاقتراب.

ابتسمت العامرية له وكأنها تتعجب من إصراره، وقالت:

- أما والله قد ملَّ صبري؛ فاقترب يا **يَغوث**، وعليك مني الأمان.

٤

وبالرغم من أن العامرية عادت في وقت متأخر تلك الليلة إلا أنها أفاقت صباحًا قبل آزر؛ وبدأت مهام تدريبه .. كان آزر ذلك النهار يبارز لأول مرة في حياته، ولكن خطواته الخفيفة أثناء الحركة، ومرونة جسده، وقوته وهو يقاتل بالدرع والسيف، واستجابته للتعليمات وفهمه لها دون الحاجة لشرح طويل، كل ذلك كانت علامات تشي بأنه محارب بالفطرة.

كان الدرع الذي يحمله مصنوعًا من الخشب الخفيف، صنعته له العامرية خصيصًا، وقد جعلت حوافه من الحديد ذي الشفرات القاطعة؛ لتضمن أن تحقق له هذه الأهداف: درع يُدافع به عن نفسه، ولا يُثقل حركته أثناء القتال، وفي ذات الوقت توفر له الحواف الحديدية ذات الشفرات القاطعة أداة هجومية فتاكة، فيستطيع بذلك الأسلوب القتالي النادر أن يدافع عن نفسه بالدرع ثم يهاجم خصمه بالدرع والسيف في آن واحد.

لم تكتفِ العامرية بتطوير قوته البدنية فقط بل كانت تضع اهتمامًا كبيرًا بعقله؛ وهذا ما جعلها تدفعه كل ليلة لقراءة صفحاتٍ من كتاب الحَبر، وحين سألها ذات مرة عن السبب الذي يجعلها تحثه على ذلك بعد أن عجز عن إيجاد الفائدة التي قد تعود إليه كمحارب من قراءة القصص، قالت تجيب عن تساؤله:

- الجهلاء وحدهم من يعتقدون أن القصص وُجدت للتسلية فقط.

- وما الذي قد أستفيده من قراءة القصص ؟

- أمورٌ كثيرة، أحدها وهو ما أسعى إليه أنها ستقوي خيالك.

- الخيال ؟! .. وما الذي قد يُفيدني به الخيال في هذه المرحلة ؟!

- الخيال يأتي أولًا؛ كل ما بوسع عَقلك تخيله يستطيع قلبك تحقيقه.

ثم صمتت قليلًا كما لتترك لتلك الجملة فرصة التسلل إلى عقله فترسخ فيه، قبل أن تكمل قائلة:

- خيالك هو خيلُك، غذاؤه القراءة، تمتطيه فيُحلق بك نحو مجدك.

**

وهكذا سارت الأيام المقبلة: في الليل تعمل على تطوير مخيلته بواسطة القراءة، مؤمنة أنها لن تستطيع أن تصنع منه مقاتلًا أسطوريًا دون أن تُغذي مخيلته بالقصص .. وفي الصباح تعزز جسده بالقوة عن طريق تمارين المقاومة وتدريبه على المبارزة بالسيف والدرع.

وذات أحد الصباحات، وبينما الذئبة والغراب يراقبان مبارزتها له في ساحة التدريب خلف الدار، كانت هنالك نظرات دخيلة لشخصين غامضين يتلصصان من بعيد على مشهد التدريب دون أن ينتبه لهما أحد.

**

(المتلصصان)

بعد غروب الشمس وعلى أضواء المشاعل:

وقف الحارث بن الأجهر في الفناء الخارجية الواسعة لداره يتأمل ابنه كعب وهو منهمك في الصراع مع مدربه، في الوقت الذي اقترب فيه أحدٌ من خلفه وقال يسأله:

- ما الذي يشغل بال سيد الوادي يا تُرى ؟!

قال وهو ما يزال يُحدق نحو ساحة التدريب:

- ما رأيك بالمستوى الذي رأيناه صباح اليوم من ذلك الفتى ؟!

- أتقصد آزر ؟

- ومن غيره يا عبد هُبل، ومن غيره ؟!

كانت تجمعهما صداقة قديمة؛ تجعل عبد هُبل يعرف صاحبه جيدًا وهذا ما جعله غير مرتاح لذلك الإلحاح المستنكر الذي يراه منه بخصوص هذا الفتى تحديدًا:

- إني لأعجب من اهتمامك بهذا الفتى دون غيره أيها الحارث؛ فلقد تلصصنا على الكثير من التدريبات، ولم أرك تكترث إلا بشأن هذا الفتى البربري ابن الذئبة.

التفت الحارث نحوه وقال منفعلًا يجيبه عن تساؤله:

- ها أنت ذا تقولها بنفسك يا عبد هُبل " البربري ابن الذئبة " ماذا سيحدث لو أنه فاز ؟! .. وتلك مسابقة فيها من فيها من أبناء السادة وشيوخ القبائل وأمرائها .. ماذا سيقول الناس عنا ؟! .. بربري غير ذي نسب يفوز على ابناء الأصل ويُعلق اسمه على أستار الكعبة ! !

- تتحدث وكأنك لستَ أنت الذي وافق على انضمامه ؟!

يصيح معترفًا هائجًا لفرط غضبه وسخطه:

- واللات لا أدري كيف رفعتُ يدي .. أتكون تلك الشمطاء قد مارست عليَّ إحدى تعاويذها فتحركت يدي رغمًا عني ونطق لساني بالموافقة ؟

عبد هُبل متعجبًا من سماعه لذلك السر:

- ولكنك قلتُ في دار الندوة كلامًا يوحي بأنك وافقت بمحض إرادتك؛ فلماذا لم تخبر السادة بمقالتك هذه ليطردوه من المسابقة ؟

- أتريد الناس أن يقولوا إنني تراجعت عن كلمة قلتها ؟! .. وحق اللات والعزى لو أن كل شياطين الإنس والجن قد تلبستني على قولٍ كلمة خرجت من بين شفتي لأنفذتها ولو كان فيها ضرب عنقي.

امتدت بينهما لحظات من الصمت قطعها الحارث بأن أعاد عليه سؤاله الأول:

- أصدقني الرأي.

- في ماذا ؟

- في أن أذبحك وأفرق لحمك بين الطائفين.

قال وقد ندت عنه ابتسامة بلهاء:

- كلي فداء سيدنا.

- ما أحوجني الساعة لمثل قلبك الغبي البارد.

- هدئ من نفسك يا حارث، لا شيء يستحق.

- أصدقني الرأي، وأخبرني عن رأيك به ؟

كان عبد هُبل يدرك أن الفتى بارع في القِتال، لقد شاهده يُقاتل بطريقة فريدة لم يسبق أن شاهد مثلها من قبل، لقد رآه وهو يصد بدرعه ضربات سيف العامرية، ثم سرعان ما يبدأ بمهاجمتها مستخدمًا سيفه من جهة ودرعه الذي يستحيل من أداة للدفاع إلى أداة هجومية قوية بامتياز من جهة أخرى، إنه يقاتل بخفة وسرعة عالية وكأنما خُلق ليكون محاربًا، ورغم ذلك كان عليه – على عبد هُبل – ألا يُثير القلق في نفس صاحبه، فأجابه بتوازن:

- لا تنسَ أنك قد استقطبت لابنك كَعب مدربًا قد شهد حروبًا وفيرة من أيام حروب العرب .. فتجاهل أمر ذلك البربري يا حارث ودعنا نضع جُل تركيزنا في فعل كل ما يلزم لتطوير قدرات كَعب وتأهيله لنيل اللقب.

٥

Traig_chaimaa

في تلك الليلة،

وبينما كان آزر نائمًا وهو يحتضن سيفه؛ إذ امتدت إليه من عُمق الظلام يدٌ غليظة قوية أطبقت على عُنقه ثم قذفت به بعيدًا .. ليستيقظ من هول الصدمة ويجد نفسه مقذوفًا في الهواء متجاوزًا نافذة الدار وقد ارتطم جسده بالأرض .. كان ما حدث مباغتًا بالنسبة له ولكن الفاجعة الكُبرى كانت عندما رفع آزر رأسه وشاهد المُهاجم وهو يدنو منه مقتربًا؛ فلفرط طول المهاجم وعرضه ومتانة جسده بدا وكأنه بعير آدمي:

" تُرى أين اختفت العامرية ؟! وأين حواء ؟! إنه يذكر بأن الذئبة كانت تنام إلى جواره قبل أن تتم مهاجمته بتلك الطريقة الوحشية .. أيكون آدمي البعير هذا قد مسهما بسوء ؟!! "

سرعان ما أوقف آزر تلك الأسئلة .. وقرر الدفاع عن نفسه عبر مهاجمة خصمه وإيقافه عند حده؛ ثم البحث عن الإجابات لاحقًا .. فنهض من مكانه وراح يركض نحوه بكل سرعته ..

هنا ومن خلف باب الدار: ابتسمت العامرية التي كانت تراقب المشهد منذ البداية - إذ أنها هي من دبرت الأمر - لتضع آزر في خطر حقيقي فترى كيف يتصرف؛ فقالت تحادث الذئبة:

- ابنكِ يملك شجاعة نادرة يا حواء.

واصل آزر ركضه نحو آدمي البعير .. ولكنه ما كاد أن يقترب منه أكثر حتى أدرك أن عدوه أكبر حجمًا بكثير مما كان يراه وهو بعيد؛ وهذا ما جعله في اللحظة الأخيرة ينحرف عن مساره ويلوذ بالفرار هاربًا ! !

ولو أن أحدًا شاهد الذئبة تلك اللحظة لخُيِل إليه أنها كانت تتأمل ابنها الهارب من خلف الباب وهي تبتسم .. فتحت العامرية باب الدار وهي تصيح وتمسك رأسها بكلتا يديها:

- ثكلتك أمك أيها الجباااان ! !

ما إن رآها آزر حتى أدرك أنه كان في اختبار؛ ولكن لشدة خوفه من عقابها لم يتوقف وظل يواصل الركض مبتعدًا وهي تُكرر صياحها عليه:

- عُد أيها الأرنب الهاااارب ! !

لم يصغِ لكلامها، وظل يركض مبتعدًا حتى لا يُطبخ على عشاء الليلة.

اقترب آدمي البعير منها وانحنى لها وهو يقول:

- لقد فعلتُ كما أمر جميل المُحيا، أهنالك أمرٌ آخر ؟

مدت العامرية يدها نحو يَغوث الذي أمسكها بحماس عاشقٍ يُمسك يد معشوقته لأول مرة، وراحا يبتعدان من هناك تحت أنظار الذئبة التي كانت تُدرك أن في الأمر شيئًا غير مريح.

**

(الجازور)

بدا الشيطان يَغوث مُنهكًا تلك الليلة بسبب اكتمال القمر في السماء، فقد كان مصابًا بداء اسمه (الجازور)؛ وهو داء يُصيب بعض الشياطين فيجعلها تفقد قوتها في كل ليلة يكتمل فيها القمر؛ الدواء الوحيد الذي يُخفف وجع الشيطان المصاب به هو ما يُعرف بالسُكنى[10]، وهذا ما دفع يَغوث ليسأل العامرية قائلًا:

- أتسمحين لي بالسُكنى ريثما تنتهي هذه الليلة ؟

ارتسمت على مُحياها ابتسامة غامضة تميل إلى الحزن وهي تقول:

- ما كنت أظن أنه سوف يأتي اليوم الذي أنسى فيه أعصم، وأسمح لغيره بأن يقترب مني؛ ولكن يبدو أن للزمن سُلطانًا يَقهر به القلوب ويروضها.

---

١٠ السُكنى هنا تعني أن يسكن أحد من بني الجان جسد إنسان يثق به، اتقاء للوجع الذي يصيبه بسبب اكتمال القمر.

قالت ذلك ثم شقت في أحد أصابعها المخضبة بالحناء جُرحًا صغيرًا، ولج من خلاله يَغوث إلى جسدها؛ ليسكن فيه ريثما تنتهي الليلة.

٦

أشرقت شمس الصباح وآزر يتكئ على صخرة في طرف الجبل؛ إنه يدرك أن موعد تدريبه قد حان ولكن الخجل من لقاء العامرية هو ما كان يمنعه من الذهاب.

وبينما هو رابضٌ مكانه هناك إذ أتاه صوت العامرية من خلفه يقول:

- من بظنك أكبر حجمًا يا آزر، الذئب أم الثور ؟!

- في الوقت الحالي لا أرى أكبر حجمًا من ذلك البعير الذي هاجمني ليلة البارحة.

قالت وهي تجلس إلى جواره وعلى كتفها يستقر غرابها الأسود:

- أنا لستُ غاضبة منك.

التفت نحوها ليقيس مدى جديتها ثم قال يسألها:

- أحقًا لستِ غاضبة ؟

- لقد غضبتُ منك في البداية عندما رأيتك تهرب كالأرنب من أمامه، أتعلم ؟! .. لو كان اسم اللقب الذي سوف تنافس عليه أرنب العرب لكنتَ ستفوز به حتمًا.

ابتسم آزر رغمًا عنه.

بينما عادت تسأله بنبرة جادة:

- لم تجب عن سؤالي بعد: أخبرني من الأكبر حجمًا الذئب أم الثور ؟

- الثور بالتأكيد - قال - الثور أكبر حجمًا من الذئب.

- ورغم ذلك فالذئب يصرعه ويأكله، أليس كذلك ؟

- هذا صحيح.

- ألم تسأل نفسك يومًا عن السر ؟

على الرغم من بساطة المعلومة، إلا أنه بدا وكأنه يعرفها لأول مرة، وتساءل في نفسه: كيف يستطيع الذئب أن يهزم مخلوقًا يفوقه حجمًا زُهاء الثلاث مرات ؟

- لا أعرف.

- السر يكمن في الطريقة، وهذا هو درسك السابع.

- الطريقة ؟!

- نعم؛ الطريقة التي يرى كل منهما الآخر؛ فالذئب عندما يرى الثور يرى فيه وجبة طعام له فينقضُ عليها .. بينما الثور يرى في الذئب خطرًا يُهدد حياته فيلوذ بالفرار.

قال يسألها وقد فهم المغزى:

- أكان من الخطأ أن رأيتُ في ذلك البعير خطرًا يُهدد حياتي فلذتُ بالفرار من أمامه ؟

قالت تُجيبه:

- في هذه المرحلة كان من الطبيعي أن تفعل ذلك؛ ولهذا أخبرتك أني لستُ غاضبة منك .. ولكننا سنعمل في السبعة أشهر القادمة على أن نجعلك الذئب الذي يرى، في عدوه مهما بلغ حجمه وقوته، فريسة ينقض عليها فيصطادها.

وما إن أنهت عبارتها تلك حتى وجهت إليه – وبسرعة خاطفة – لطمة قوية على وجهه، غير أنه استطاع صدها قبل أن تصل إليه، فقالت العامرية في ابتسامة فخر:

- ها قد بدأت تتصرف مثل صياد ماهر.

ابتسم آزر ولكن ليس لأنه نجح في صد ضربتها بل لأنه نال إعجابها، ولما ظن أن كلامها انتهى، نهض معتقدًا أنهما سوف يذهبان إلى ساحة التدريب ولكن العامرية لم تتحرك من مكانها وقد بدا أن هنالك ما تريد قوله، وهذا ما جعله يسألها:

- ما بك ؟

قالت بعد لحظات من الصمت:

- أأنت مستعد لمعرفة العهد الذي أريد منك تنفيذه ؟!

- نعم؛ وسأفعله مهما كان صعبًا.

- أتمنى أن يظل رأيك هذا ثابتًا حتى بعد أن تعرفه.

- لقد قطعتُ لكِ وعدًا بتنفيذه ولن أتراجع عن هذا الأمر ولو كان فيه ضرب عنقي.

كان يقول كلامًا أكبر من عمره بلا شك، ولكن العامرية متأكدة من أنه يعني كل حرفٍ فيه، مكثت صامتة لبعض الوقت قبل أن تفتح فمها لتقول وكأنها تذكرت أمرًا:

- ولن تسألني عن الأسباب.

وهو يثني ركبتيه أمامها جالسًا وينظر إليها:

- مُريني أطع عهدكِ دون السؤال عن الأسباب.

حركت كتفها الأيسر بهزّة طفيفة ليلتقط غرابها الإشارة ويقفز حائمًا في الهواء، ثم ينعق بطريقة محددة فهمت العامرية من خلالها أنها تستطيع أن تكشف النِقاب عن السر دون أن تخاف من أُذنٍ تسترق السمع عليها، فبدأت تخبره بالعهد الذي تريد منه تنفيذه حتى إذا ما انتهت من كلامها أخيرًا بانت الفاجعة على وجه آزر، وسقطت من عينيه دموع لم يسبق لها أن سقطت أمام غريب من قبل؛ لقد كان ما طلبته منه أقوى من قدرته على التحمل، وقد أدرك أنه تورط بقبول العهد، وتمنى لو أنه لم يأتِ إلى هذه الحياة؛ فيشقى طوال عمره بتنفيذه.

"بعد سبعة أشهر"

بدء منازلات صِنديد العرب ..

٧

اليوم ما قبل الأول

"دق الأقداح"

كان اليوم ما قبل الأول يُسمى بيوم (دق الأقداح)، وفيه يجلب السادة قدحًا كبيرًا يضعون داخله سِهامًا تُكتب عليها أسماء العصبية المشاركين؛ فيتم من خلالها اختيار الخصوم.

حين جاء اليوم التالي: كان النزال الأول يضم أحد أبناء سادة مكة ضد فتى من قبيلة خُزاعة، فاحتشدت القبيلتان حول حلبة الصراع وبقية الناس على الجبال يشاهدون بدء القتال .. وقد استمر بينهما لمدة من الزمن حتى قام فتى خزاعة أخيرًا بتوجيه ضربة قوية بارعة تسببت في كسر ساق خصمه وحسمت الفوز لصالحه.

امتدت فترة استراحة قصيرة تفصل النِزال الأول عن الثاني، يتم خلالها توزيع الطعام والشراب على الجماهير، ريثما يتهيأ الخصمان التاليان للنزال القادم.

**

(دار الندوة)

داخل دار الندوة بدا الضيق على الأعيان وهم يسمعون أصوات قبيلة بني خزاعة في الخارج وهم يتفاخرون بنصرهم؛ فمال أحد السادة نحو الحارث وقال هامسًا:

- ابنك هو التالي يا أبا كَعب.

- أتظنني أجهل هذا الأمر يا عبد هُبل ؟

- لا؛ ولكنني أريدك أن تنظر إلى الوجوه من حولك.

نظر الحارث حوله، فشاهد وجوهًا مُكفهرة شاحبة:

- هذه الوجوه لن تحتمل هزيمة ثانية اليوم يا أبا كَعب .. وقد سمعت أن هذا الفتى (ضِرغام) الذي سوف يواجهه ابنك بعد قليل يُعد أحد أقوى فِتيان قبيلة بني بكر.

بان القلق على وجه الحارث بن الأجهر،

وقد أدرك أن في انتظار ابنه كَعب مهمة صعبة للغاية.

ورغم أن الأمر في نهاية المطاف كان عبارة عن منافسة قتالية لا تعدو كونها وسيلة للترفيه، إلا أن كل قبيلة مشاركة كانت ترى النزال وكأنه حرب مصغرة يعلو فيها اسم القبيلة بالنصر أو يهبط بالهزيمة، وهذا ما دفع الحارث ليضع على نفسه هذا النذر:

- اشهدوا عليَّ يا قوم - وأضاف عندما اتجهت الأبصار نحوه:

- شرف مكة بات معلقًا بناصية ابني كعب .. فإما أن ينتصر في نزاله ضد الفتى البكري .. وإما أن يُهزم فأغسل بدمه عار اليوم.

**

(النزال الثاني)

وقف الاثنان - كعب بن الحارث والفتى البكري - داخل الحلبة وقد استعدا للنزال، وما هي إلا لحظات يسيرة حتى قُرع الطبل فسحب كل واحد منهما سيفه واشتبك بالآخر بقوة .. والحشود تهتف مُنقسمة بين هذا وذاك بينما سيد الوادي - الحارث - يشاهد النزال صامتًا وهو يُمسك سيفه الذي سوف يَفي به نذره في حال هُزم ابنه ..

مرّ وقت طويل والاثنان يتصارعان بقوتين متعادلتين حتى سدد الفتى البكري ضربة بارعة أطارت السيف من يد خصمه كَعب؛ فاشتعل النِزال بطريقة مجنونة وراحت قبيلة بَكر تصدح بالهُتافات والأهازيج وقد اقترب فتاها من النصر بعد أن جرّد خصمه من السلاح، لينطلق بعدها الفتى البكري بسيفه مستهدفًا صدر كَعب؛ فأغمض الحارث بن الأجهر عينيه لكي لا يَشهد هلاك ابنه .. وبينما كانت عيناه مُغلقتين سمع شيئًا لم يستطع تفسيره: فقد أُخرست أفواه قبيلة بني بكر فجأة وعلت هُتافات أهل مكة، ففتح عينيه ليفهم ما حدث؛ وهنا كانت المفاجأة حين شاهد ابنه وقد استطاع أن ينتزع السيف من يد خصمه ويصوبه نحو عنقه؛ ما جعل الفتى البكري يُعلن قائلًا:

- أستسلم.

**

(النِزال الثالث)

كان النِزال الثالث هو الأخير لذلك اليوم،

حيث يجمع ما بَين - آزر وفتى من قبيلة كِندة - ورغم أن آزر من أهل الوادي إلا أنهم قد التزموا الحياد معه ولم يهتف أحدٌ منهم باسمه؛ فاتجهت كل الهُتافات إلى الفتى الكِندي

كان إحساسًا ثقيلًا على قلب آزر وهو يتأمل خصمه وقد راحت قبيلته والناس يهتفون باسمه ويشجعونه، بينما هو يقف في ساحة النزال وحيدًا عيناه إلى الأسفل لفرط الخجل ولا صوت يهتف له ويشجعه، لو كانت أمه الذئبة حوله لكان ذلك سيعطيه قليلًا من الثقة، ولكن السادة استبعدوا وجودها حتى لا يخاف الناس منها، أما العامرية فقد نصحوها بعدم الظهور حتى لا يراها العرب فيعودوا إلى قصتها القديمة.

رفع آزر بصره عن الأرض وراح يُفتش بنظرات منكسرة في وجوه الجماهير عن بُثينة، وجهها الأسمر المُزدان بندوب المخالب كان سيبعث الأمان إلى قلبه بالتأكيد، ولكن منزلتها - وهي امرأة تَعمل عند السادة بالأجرة - لا تتيح لها التواجد هناك.

كثير من المشاعر السيئة اختلطت بقلبه تلك اللحظة، وهذا ما جعله لا يَنتبه إلى صوت قرع الطبل الذي أعلن عن بدء المعركة، وبالتالي لم ينتبه لضربة خصمه السريعة إلا في آخر لحظة؛ وهذا الانتباه المتأخر هو ما جعل محاولة تفاديه للضربة لا تنجح بشكل كامل؛ فقد استطاع سيف الخصم أن يُسبب له جرحًا سطحيًا في فخذه سوف يجعل حركته بطيئة في الوقت القادم، تعالت الهُتافات لصالح الفتى الكِندي، فكان ألم تلك الهُتافات بالنسبة إلى آزر أشد وجعًا من أنه لو كان قد استقبل ذلك الجرح في قلبه.

عاود الفتى الكِندي الهجوم،

فسدد ضربة ثانية قوية بالسيف استطاع آزر صدها بدرعه،

لكن الضربة كانت أقوى مما توقع، فتراجع بسببها إلى الخلف وقد تعثرت قدماه وسقط أرضًا .. رفع الفتى الكِندي يديه عاليًا ليحصد مزيدًا من الهتافات باسمه وقد اقترب من النصر، وراح جميع من كان حول الحلبة يُرددون بصوت واحد:

اقتل ! ! اقتل ! !

اقتل ! ! اقتل ! !

اقتل ! ! اقتل ! !

سيطرت الهتافات على ذهن آزر مؤكدة له أكثر حقيقة أنه منبوذ ومكروه؛ فتحطمت عزيمته وكُبلت أطرافه كما لو أن احباط قلبه قد انعكس على بدنه وشل حركته .. كل ما كان بوسعه أن يفعله هو أن يستعد للموت، ولكن عند تلك اللحظة النادرة انبعث صوت من فوق قِمة جبل أبي قُبيس أخرس أفواه الحشود البشرية، كان ذلك صوت عواء أمه الذئبة حواء التي وكأنما كانت تقول له بأنها كل جماهيره التي تشجعه وتؤمن به.

شحذ ذلك الصوت روح الحماس بداخله وعزز ثقته بنفسه ما جعله ينهض ويكون شخصًا آخر يختلف عن الذي كانه قبل قليل، فعاد النِزال يشتعل بينهما، واشتبك الخصمان بقوة عنيفة وقد استمر بينهما القِتال مدة من الزمن حتى استطاع آزر أن يُسقطه في النهاية ويصوب سيفه نحو عنقه؛ ما جعل الفتى الكِندي يؤثر حفظ روحه ويقول مُعلنًا:

- أستسلم.

صمت الحشد بسبب النتيجة غير المتوقعة، بينما لم ينتظر آزر من أحد أن يُشجعه كان يَكفيه فقط أن ينظر نحو قِمة الجبل - جبل أبي قُبيس - ويرفع يده الممسكة بسيفه لتعوي الذئبة حواء، وخلفها يتعالى صوت عواء زُمرة الذئاب المُنبعثة من أعماق الوادي.

**

(بعد سبعة أيام)

كان الحارث بن الأجهر ذلك المساء يجلس على مصطبة من الطين عند باب داره، وقد بدا سارح الذهن وهو يتأمل السماء بشرود؛ مما جعل صاحبه عبد هُبل الجالس إلى جواره يعلق قائلًا:

- أأرسلت عبيدك في طلبي لتمكث ساهم الفكر هكذا ؟

واصل الحارث صمته، ما جعل عبد هُبل يقول حاثًا إياه على الكلام:

- هذا الوجه العبوس لا يَليق بحالك؛ فقد وصل ابنك كَعب إلى النِزال الأخير بعد أن خاض نِزالات عديدة، وها هو قد قاب قوسين أو أدنى من تحقيق لقب الصِنديد.

قال الحارث يكاشفه عما يفكر فيه بصوت مُثقل بالهموم:

- أفكر فيما سيحدث غدًا يا عبد هُبل، إن الذي كنت أخاف منه بات واللات قريبًا.

كان يوم الغد حاسمًا في المسابقة؛ إذ يُنازل فيه آزر فتىً من القبائل الشمالية لجزيرة العرب اسمه - قَيس بن هامة الشمال - والفائز منهما يصعد بعد أيام للقاء كَعب بن الحارث وينافسه على حَمل لقب الصِنديد في النِزال الأخير.

قال عبد هُبل يُطمئنه:

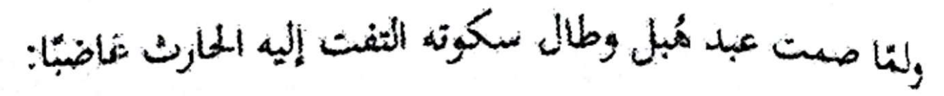
- ألا تعتقد أن ابنك كَعب يستطيع هزيمته إن لاقاه في النِزال الأخير ؟!

- كَعب قوي، وقد شهدنا منه ما يسر الفؤاد.

- لماذا فؤادك مُشتعل بكل هذا القلق إذًا يا حارث ؟!

- لأنني وإن كنت واثقًا من مهارته .. إلا أنني لا أستطيع ضمان تغلبه على ذلك البربري - ثم أضاف وثَمة قلق رهيب يقدح كالشرار من عينيه:

- ماذا تراني سأصنع إن استطاع ذلك البربري التغلب على ابني يا عبد هُبل، أي عارٍ سوف يلحق بي وبأهل الوادي ؟! .. أتقول العرب إن فتىً عديم النسب جندل ابن الحارث، بن الأجهر سيد سادة البطحاء والوادي ؟! تلك إذًا واللات سُبة الدهر وعار الأبد .. وإن ضياع المال عندي أو الموت لهو أهون من حدوث ذلك ! !



ولمّا صمت عبد هُبل وطال سكوته التفت إليه الحارث غاضبًا:

- لو كنت أطمح بسماع الصمت لكنت شكوت همي إلى حمارة الدار؛ فهي تُحسن الصمت خيرًا منك - وصاح عليه قائلًا: ألا تشور عليَّ بشيء قبحتك الآلهة ؟

- ما فهمته منك هو أنك لا تُبالي بهزيمة ابنك كَعب.

- ألم أقل إن الحمارة كانت ستفهمني أكثر منك ؟

- دعني أُكمل !

- تكلم ..

- أنت لا تُبالي بهزيمة كَعب، المهم عندك فقط هو ألّا يُهزم أمام آزر.

صمت الحارث قليلًا ثم قال معترفًا:

- إن كان لا بد من الهزيمة، فأن يُهزم ابني كَعب أمام مقاتل ذي نسب، خيرٌ عندي من أن يُهزم أمام فتىً لقيط لا نسب له ولا أصل.

قال يُشير عليه:

- كِد للبربري مكيدة لا فِكاك منها إذًا؛ تجعله يُهزم في نزال الغد ضد فتى قبيلة الشمال؛ فتضمن ألّا يلاقي ابنك في الجولة الأخيرة.

هزَّ الحارث رأسه وقد أعجبه ذلك الاقتراح، وصاح ينادي:

- جحش، يا جحش !

وما هي إلا لحظات حتى جاء جحش مهرولًا بجسده الضخم:

- أمرك سيدي.

الحارث وهو يُشير بيده:

- تعال ادنُ يا جحش، واجلس ها هنا ..

أدرك العبد فورًا أن هنالك أمرًا هامًّا يريده منه سيده؛ فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يطلب فيها منه الجلوس أمامه، فجلس مقابلًا له خافضًا رأسه.

أمسكه الحارث من شحمة أذنه الكبيرة وهمس فيها:

- أتعرف اسم صاحبي هذا يا جحش ؟!

- نعم أعرفه.

- ما اسمه ؟

- إنه سيدي عبد هُبل.

- وتعرف هُبل يا جحش ؟

- ومن لا يعرف إله الحرب والنُصرة يا سيدي ؟

- وتعرف كيف يُقدم الناس أُضحياتهم له ؟!

- أعرف، أعرف.

- سوف أسفك دمك، وأُقدمه قُربانًا لهُبل إن عرف أحد بما سوف أُكلفك به الساعة.

- لن أخبر أحدًا - قال جحش وكرر - أعدك بذلك يا سيدي.

أفلت الحارث أذن جحش، ثم قال له:

- اسمع إذًا ..

**

(القــلادة)

ليلًا،

وقبل انقشاع ضوء الفجر بوقت قصير، التقى الحارث بالمدرب المسؤول عن تدريب فتى قبيلة الشمال - الذي سوف يُنازل آزر غدًا - التقى به في أحد الشِعاب البعيدة حتى لا ترصده العيون، يحمل بيده الشيء الذي كان قد أوصى عبده جحش أن يذهب ليجلبه له وهو عبارة عن صُرة صغيرة من الجلد تحوي بداخلها شيئًا.

قال وهو يمد الصرة نحو المدرب:

- اطلب من تلميذك أن يضع هذه على عنقه في قتال الغد يا حاييم.

أخرج المدرب حاييم ما كان مَخبوءًا داخل الصُرة فوجدها قلادة صُنعت من جلد الماعز، وقد كُتب عليها بعض الحروف والكلمات والرسومات الغريبة:

- لا أستطيع - قال وهو يعيدها - أنا لا أستطيع قبول أمرٍ كهذا.

ابتعد حاييم مغادرًا، ولكن الحارث الذي يعرف من أين تؤكل الكتف قال بمكر:

- إنك واللات لفي حاجة إلى هذا الطلسم أكثر مني.

التفت حاييم بفضول، بينما أكمل الحارث:

- إنك من يهود يثرب، وإن قومك أهل تجارة وزراعة، فإن فاز تلميذك غدًا أصبتَ معه صيتًا رفعت به نفسك وقومك؛ فتصبح بينهم عزيزًا مُطاعًا، فأطعني ولا تخسر هذه الفرصة.

لم ينتهِ الحارث من كلامه ذاك حتى عاد حاييم أدراجه:

- وماذا عن الكَهنة الذين سيَشهدون النزال ؟

- لا تكترث بشأنهم سنعرف كيف نكسب ودهم؛ فأنا وبقية السادة غير راضين عن هذا الفتى البربري عديم الأصل وسوف يُسعدنا أن يُهزم بأية طريقة كانت.

أخذ حاييم الصُرة وخبأها تحت ثيابه ثم استدار، ولكنه قبل أن يبتعد حذف إليه الحارث بصرّة مليئة بالدنانير:

- سوف يَصنع تلميذك لنا معروفًا جليًّا إن قتل ذلك البربري غدًا.

انكسرت نظرة حاييم وبات يتطلع إلى الحارث بذات الطريقة التي يتطلع فيها العبد إلى سيده، قال وهو يُخبئ صُرة المال في ملابسه:

- سأحثه غدًا على ذلك يا سيدي.

٨

النِزال ما قبل الأخير
"آزر وفتى قبيلة الشمال"

بدأت الهتافات مبكرة باسم فتى قبيلة الشمال قيس الذي أحس بنشوة مُضاعفة وهو يسمع الحشود تُردد اسمه، بينما لم يكترث آزر لتجاهل الجمهور له؛ فقد قالت له العامرية شيئًا جعله ينظر للأشياء بزاوية مختلفة:

" الإنسان وحده من يَملك بداخله عوامل فنائه أو بقائه،

لا الجماهير التي تهتف باسم خصمك، لا المكائد التي تُحاك ضدك،

لا الحروب التي تُشن عليك، لا شيء يستطيع هزيمتك إلا إن سمحت له بذلك، وتذكر دائمًا:

إنه على قدر إيمانك بنفسك تتسع لك رُقعة الأرض "

مع صوت قرع الطبل هجم آزر بكل قوته، كان يريد أن يُنهي الأمر بضربة واحدة قاصمة تحسم النِزال سريعًا؛ فهجم بواسطة درعه وسيفه في هجوم كاسح مشترك.

ورغم أنه وضع طاقة كبيرة في ضربته إلا أنها وقعت سهلة على خصمه، الذي لم يبذل مجهودًا يذكر بصدها .. دُهش آزر مما حدث ودخل الشك إلى قلبه فالتفت نحو الكَهنة ليجدهم يتابعون النِزال بحياد ودون تدخل؛ الأمر الذي دفعه إلى أن يستبعد احتمال أن يكون خصمه يستخدم السحر ضده.

مستغلًا حالة الدهشة تلك التي كان عليها، قام قَيس بتسديد ضربة قوية بسيفه، انتبه لها آزر متأخرًا لكنه استطاع أن يصدها بدرعه. ليشتبك بعدها الخصمان في مبارزة غير متكافئة القوى؛ فقد كانت ضربات آزر تقع سهلة على خصمه، بينما ضربات خصمه تتجاوز درعه وتجرح جسده وتُنذره باقتراب هزيمته .. ومع مرور الوقت واستمرار النِزال كثرت الجِراح في جسد آزر وبدأت خطواته بالترنح وقد بدا مُجهدًا أكثر مما ينبغي؛ حتى أن خصمه الذي جاء يتوقع نزالًا صعبًا بعد أن كان شاهدًا على منافساته السابقة في مقارعة الخصوم قد أذهله ما يراه الآن عليه من كل ذلك الضعف والتخبط.

- اهجم عليه بكل قوتك، إنها فرصتك !

كانت تلك صرخة حاييم الذي كان يوجه بها تلميذه ..

مستجيبًا إلى تلك التعليمات: ركض قَيس نحو آزر مندفعًا حتى ارتطم به بقوة، كان الارتطام عنيفًا للحد الذي جعل درع آزر يرتد إلى الوراء بطريقة مفاجئة، ويتسبب في خلع كتفه، ليسقط أرضًا وقد أفلتت منه صرخة ألم عجز عن كبحها.

هنا صاح المدرب حايم على تلميذة قائلًا:

- اقتله ! ليكون عِبرة لغيره.

كان القتل في نِزالات صِنديد العرب أمرًا مشروعًا؛ ولكن أخلاق قَيس أبت عليه أن يفعل ذلك؛ لا سيما أنه انتصر في النِزال ولم يعد هنالك داعٍ لإراقة الدماء:

- لا أقتله وقد انتصرتُ عليه.

قالها ثم رفع يديه محتفيًا بانتصاره فصاحت له الجماهير وراحوا يرددون اسمه .. ولكن الهتافات لم تستمر طويلًا حتى أُخرست فجأة وذلك عندما شاهدوا امرأة متلفحة بالسواد تخترق صفوفهم وتقف وسط الحلبة يُحلق فوق رأسها غرابٌ أسود يظللها بجناحيه:

- ما كنتُ أعلم أنني سأعيش حتى أرى سادة مكة لا يراعون الذِمة ! !

أدرك السادة أن أمرهم قد كُشف، واصلت العامرية كلامها تخاطب الكهنة الذين كانوا يشهدون النزال فوق هوادج يحملها العبيد، وقد كانوا جميعهم من الكَهنة حديثي السن الذين لم يذع صيتهم بعد عند العرب؛ ولذلك كان من السهل شراء ذممهم:

- ألا تخجلون من أنفسكم أيها اللكع الفسوق ؟! تشهدون الباطل بأعينكم ولا تنكرون، ألا تبًا لكم وشانت الوجوه ! ![11]

هنا تدخل قيس:

- مهلًا، عن أي باطل تتحدثين ؟

رفعت العامرية يدها وأشارت بها نحو صدره:

- هذه التميمة التي أُهديت لك البارحة هي التي فازت بهذا النزال.

صُعق قيس وقد فهم الآن فقط لماذا كانت ضربات خصمه لا تصله بالقوة المتوقعة .. ولماذا انتصر عليه بكل هذه السهولة والسرعة، تدخل مدربه حاييم:

- لقد نُلنا الفوز؛ وحُسم أمر النزال.

صاحت العامرية: ألا بئس لفوزٍ لم يحصده ذراع الفتى !

عاد حاييم يُردد مقولته متمسكًا بالنتيجة التي حسمها السادة لصالح تلميذه:

- لقد حُسم الأمر، والناس شهود !

---

[11] لكع معناها " لئيم أو حقير " وكلمة فسوق تعني العاصي.

كان بوسع قَيس أن يحتفظ بالفوز لولا أن صاح مرددًا جملة العامرية:

- ألا بئس لفوزٍ لم يّحصده ذراع الفتى !!

ثم انتزع القلادة من عنقه وألقاها بعيدًا، وقال بصوت معتذر وهو يمد يده نحو آزر:

- أتستطيع الوقوف ؟

أمسك آزر باليد الممدودة ونهض، ليكمل قَيس وهو ينظر إليه:

- ما كنتُ لأقبل أن أفوز عليك بهذه الطريقة - ثم يضيف وهو ينظر إلى الجموع المحتشدة حول الجبال المحيطة بالحلبة مُعلنًا: إنني أتنازل عن هذا الفوز الذي لا فخر به ولا شرف.

ابتسمت العامرية لسماعها تلك الكلمات التي لم تتوقع سماعها بعد حسم النتيجة:

- أنعم يا ابن الشمال، والله إنك أهل للفوز وإن لم يكن لك.

أثار ذلك التنازل بلبلة وسط الجماهير لا سيما أن قانون نِزالات صِنديد العرب لا يسمح للفائز بالتنازل عن فوزه بعد أن تُحسم النتيجة لصالحه، وبينما كانت الجماهير تتجادل حول ما حدث وقد انقسموا بين مؤيد ومعارض، إذ تقدم الحارث إلى وسط الساحة رافعًا يديه:

- يا قوم .. يا قوم ! !

أطبق الصمت على المكان وأنصتوا إلى السيد وهو يقول:

- إننا واللات نأبى الذِلة والغدر ونرعى الأمانة والذِمم .. وإننا نتعهد لكم بألَّا نترك هذا الأمر حتى نعلم من يقف خلفه وتُنزل به واقعة تجعله عِبرة لكل من تُسول له نفسه الغش والخداع مرة أخرى.

منحته العامرية ابتسامة ازدراء جعلته يرتبك ويُدرك بأنها تعرف أنه الشخص الذي دبر تلك الحيلة؛ وهذا ما جعله يُنهي نِفاقه سريعًا وينفذ إلى صلب الموضوع:

- لقد أجمع سادة الوادي بعد المشورة والمداولة على قُبول تنازل قَيس بن هامة الشمال؛ وبذلك يكون الفائز في هذا النِزال هو آزر.

اشتد حماس الناس لفرط هول الموقف وراحوا يَهتفون لقَيس ويُثنون على شهامته التي لم يسبق لها مَثيل. ثم ما لبثوا قليلًا حتى راحت أفواههم تهتف لآزر أيضًا والذي دمعت عيناه وهو يسمعهم يُرددون اسمه، وقد أنسته تلك الفرحة ألم كتفه المخلوع، وجعل سؤالًا فاتنًا يقفز إلى قلبه وهو يرى الجماهير حول الجبال يَهتفون له:

أتكون أمي الآن بينهم، تهتف باسمي معهم ؟!

٩

عودة عامر بن لُكيز

في اليوم التالي، اجتمع السادة في دار الندوة أبكر من عادتهم؛ وذلك احتفاءً بعودة سيدٍ من سادة البطحاء هو عامر بن لُكيز الذي كان في تجارة له في اليمن، وكان أول ما فعله حين حطت قافلته هو أن أخذ ناقة من خير نوقه ونحرها حمدًا وشكرًا لهُبل وبقية الأصنام لأنها كللت رحلته بأرباح لم تخطر له على بال، وحين فرغ من صلواته ودعائه، ذهب إلى داره ليغتسل ويلبس ثياب الحرير ويتطيب بأزكى أنواع الطيب، ثم يذهب للقاء من ينتظره من السادة في دار الندوة.

**

استقبله السادة بالحفاوة والترحاب، وعندما انتهت لحظات الاستقبال وهدأ المجلس، نظر السادة إليه وقد اعتقدوا أنه سيحدثهم عن أخبار تجارته باليمن ولكن عامر كان لديه ما هو أهم من ذلك فقال:

- إنني أنذر أن أذبح قربانًا لجميع آلهة العرب هي مئة ناقة حمراء إن وضعت زوجتي اليوم مولودًا ذكرًا .. وإنني لأطلق عليه اسم جُمح تيمُنًا بجدي جُمح بن كِنان.

هتف أحد السادة وقد كان طاعنًا في السن:

- نِعم السيد هو، ونِعم التسمية.

ردد السادة قول الشيخ: "نِعم السيد، ونِعم التسمية".

بينما انبرى الحارث يقول في حماس وقد واتته فكرة شيطانية:

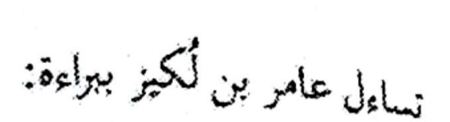
- يا معشر السادة، ألا تستحق عودة صاحبنا عامر أن نحتفي بها ؟!

همهم السادة موافقين دون أن يدركوا المعنى الخفي والخبيث الذي كان ينطوي خلف ذلك الرأي، بينما واصل الحارث كلامه مقترحًا ليقنعهم بالفكرة التي ستخدم مصلحته الشيطانية:

- أرى أن نُعجل بالنِزال الأخير احتفاءً بهذه المناسبة.

التقط صاحبه عبد هُبل المغزى من وراء الفكرة وقال يُعززها:

- إنه واللات لرأيٌ صائب؛ فإني لا أظن أن صاحبنا عامر سيمكث حتى يحين موعد النِزال الأخير.



تساءل عامر بن لُكيز ببراءة:

- ومتى يكون موعد النزال الأخير ؟

أجابه عبد هُبل:

- بعد تسعة أيام من يومنا هذا.

- لا وحق هُبل .. لا أستطيع أن أمكث هذه المدة؛ فقد تركتُ تجارتي في اليمن تحت وصاية وكيلي (سُراقة بن ذيل الناقة) حتى أدرك موعد ولادة زوجتي فأرى ابني جُمح وأطمئن عليه ثم أعود إلى اليمن من فوري.

الحارث مستغلًا تلك المعلومة: إذًا نُعجل في النزال فنُقيمه يوم الغد؛ ليشهده صاحبنا عامر فيكون هذا احتفالًا برؤيته وعودته سالمًا، وإنه واللات لهو أهل لذلك.

وافق السادة على مقترح التبكير بموعد النزال، فصاح الحارث بن الأجهر بصوت حماسي حين تأكد له أن مخططه الخبيث قد نجح:

- إذًا ليأتي العبيد بالخمر، وليذبحوا لإطعامنا .. ولتُحضر الجواري الدفوف لنُقيم ونشرب ونلهو إلى طلوع الفجر احتفالًا بعودة صاحبنا !

ابتهج السادة بهذه الضيافة الكبيرة؛ فقد جرت العادة على أن من يُنادي بالشيء يتولاه؛ والحارث هو من نادى على تلك الضيافة وهو وحده من سيتكفل بها .. ومع بدء العزف ودخول الجواري ودق الدفوف وتوزيع الشراب أومأ الحارث لعبده جحش وأوصاه أن يذهب للعامرية من فوره؛ لكي يُبلغها بما قرره السادة.

١٠

فوقَ قِمة جبل مجر الكَبش

داخل الدار التي تستقر وحيدة فوق قمة الجبل، كانت بُثينة تُنظف الجروح التي ملأت جسد آزر وتُمسد كتفه المخلوع بمزيج من منقوع زيت الأعشاب وهي تقول بقلق:

- هل سيُطيل الأكتع غيابه ؟!

- لا تقلقي - أجابتها العامرية - ما يزال أمامنا تسعة أيام على موعد النزال المحدد.

عند تلك اللحظة استدارت الذئبة ناحية الباب وهي تُزمجر بأصواتٍ متوجسة، فتساءل قَيس بن هامة الشمال الذي ارتاح له آزر بعد تصرفه النبيل وطلب منه مرافقتهم إلى الجبل، تساءل وهو لا يعلم لماذا تصدر الذئبة تلك الأصوات:

- ما بها حواء تحدق إلى الباب وتزمجر ؟

قال آزر وهو يُغالب ألمه:

- يبدو أن هنالك أقدامًا غريبة تقترب من الدار.

هنا تحركت العامرية نحو الباب لتفتحه .. وثمة شعور غير مُريح بخالج أعماقها، وما إن شاهدت القادم حتى قالت بصوت غير مُرحب:

- أيّ رياح سوء أتت بك اليوم يا جحش ؟!

رغم ضخامة العبد جحش إلا أنه ارتعد خوفًا كقط عندما وجد نفسه يقف أمام العامرية، وغرابها الأسود غريب الأطوار يستقر فوق كتفها الأيسر ويُحدق إليه بنظرات حادة.

- لقد كلفني سيدي الحارث أن أنقل إليك خبراً.

- قُبحت، وقُبح سيدك، أخبرني بالمصيبة التي كلّفك بها ..

**

بعد قليل: لاحظت بُثينة أن العامرية قد عادت بغير الوجه الذي ذهبت به، فقالت تسألها:

- من كان عند الباب يا عامرية ؟!

- جحش، وقد جاء ليخبرني بما عزم عليه تَيس البطحاء وكبيرها.

لم يستطع قَيس أن يغالب ابتسامته رغم حساسية الموقف وهو يسمعها تصف الحارث بالتيس، واصلت بُثينة تسألها:

- وما تُراه قد عزم عليه ؟!

- لقد أقنع السادة أن يُقيموا النِزال الأخير غدًا.

اتسعت عينا بُثينة في ذهول وهي تقول بصوت مضطرب:

- ولم عساهم يوافقون على أمر كهذا ؟!

- احتفاءً بعودة تيس آخر هو عامر بن لُكيز، والذي عاد سالمًا من تجارته باليمن.

قالت بُثينة في هلع:

- آزر لن يستطيع القِتال بكتف مخلوع وكنا نأمل أن يعود الأكتع غدًا ليعالج كتفه، فأرى ألَّا يذهب إلى النِزال؛ فيجبرهم بذلك على تأجيله ليوم آخر.

قال قَيس الذي يعرف القوانين جيدًا:

- سوف يعتبرونه منسحبًا في هذه الحالة .. ويلحقه بذلك عار الأبد؛ سوف يقولون عنه أنه جبن وتراجع، وسيتم بعدها تتويج كَعب بن الحارث بطلًا على صِنديد العرب.

- وما الحل برأيك ؟!

- إننا في موقف حرج للغاية، ولا أرى حلًا غير أن يأتي الأكتع الآن لإصلاح كتفه، ثم نأمل أن يكون آزر بعد ذلك قادرًا على القِتال في نزال الغد.

سارت العامرية نحو آزر الممدد فوق السرير وهي تقول:

- لم يعد أمامنا وقت لننتظر أحد.

بُثينة في حيرة:

- وما الذي تنوين فعله ؟!

- ما كان يجب أن يفعله الأكتع.

- وتُجيدين فعل ذلك ؟!

- لستُ متأكدة، ولكنني رأيته يفعلها ذات مرة.

قال قيس الذي كان يدرك الخطورة المنطوية على ذلك:

- ألن تتعطل كتفه إلى الأبد إن حاولتِ إصلاحها بطريقة خاطئة ؟

- بلى؛ ولن يستطيع الأكتع حينها ولا غيره علاجها.

- لماذا تُقدمين على هذه المخاطرة إذًا ؟!

- لأن آزر إن لم يستطع القتال في النزال القادم، فلا يهمني هو ولا تُهمني كتفه أو روحه إن خُلعت من مكانها حتى.

أرسل إليها آزر نظرة كسيرة هو يدرك أنها تلتزم باتفاقها معه حين قالت إنها لن تحبه أو تعطف عليه .. ولكنه لم يكن يدرك أنه هيّن إلى هذا الحد عندها، فقالت العامرية التي انتبهت إلى مغزى نظراته:

- لا تنظر إليّ هكذا فأنت لا تعني لي شيئًا؛ وأنني أتوق لأن ننتهي من هذا الأمر ثم تُنفذ عهدك الذي قطعته لي؛ فلا أراك بعدها أبدًا.

في الحقيقة: طوال مدة التدريب التي امتدت بينهما زُهاء السبعة أشهر لم يستطع آزر أن يلتزم بجانبه من الاتفاق، لقد تعلق بها وأحبها رغمًا عنه وبات لا يستطيع تخيل يومه يمضي دون أن يسمعها تصرخ عليه أو تشتمه أو تضربه بحذائها أو بكل ما تطاله يدها؛ وبالرغم من أنه لم يرَ أمه أبدًا إلا أنه يشعر وبطريقة غامضة أن العامرية تشبه أمه أو ربما تكون هي أمه بالفعل، فأغمض عينيه وقال:

- هاكِ كتفي، وهاكِ روحي، افعلي بهما ما تشائين.



قالت وهي تُمسك ذراعه بيد، وكتفه باليد الأخرى:

- إن سمعتُ لك صوتًا، قطعت لسانك، هل هذا مفهوم ؟!

هزَّ رأسه بعلامة نعم، وعض على فمه بقوة ليضمن عدم إصدار الصوت.

بعد ذلك وبطريقة سريعة: قامت بدفع ذراعه ناحية كتفه بقوة حتى سمع الجميع صوت فرقعة عظمه أعقبها صوت صرخة وجع عالية لم يستطع كبحها رغم محاولته؛ فأدخلت العامرية إصبعيها داخل فمه وأخرجت لسانه وهي تقول:

- أخبرتك أنني سأقطع لسانك إن سمعت لك صوتًا !

أغمض قَيس عينيه لكي لا يرى لسان صاحبه يُقطع، بينما تدخلت بُثينة تتوسلها في آخر لحظة.

- إن ألمه أكبر من أن يحتمله؛ فدعيه بحق رب إبراهيم عليكِ.

تركت العامرية لسانه وغادرت الدار ورأسها لا يحتمل صراخه، لتلحق بها بُثينة إلى الساحة الخلفية حيث ساحة التدريب، وتجلس إلى جوارها وهي تسألها في فضول:

- لم كل هذا الحزن يبدو عليكِ يا عامرية ؟

- ما زال الحارث يكيد لآزر؛ فهو لم يقم بتعجيل موعد النِزال إلى الغد احتفاءً بقدوم صاحبه عامر من اليمن؛ بل قام بفعل ذلك لكي يمنع كتف آزر عن التشافي؛ فيعطي بذلك أفضلية النصر لابنه كعب.

قالت بُثينة كما لو أنها تحاول بكلامها أن تطمئن نفسها:

- لا عليكِ؛ آزر قوي وسيعرف كيف يتدبر أموره.

- أتمنى أن يُحسن ذلك الغبي التصرف.

- إنه يحبك أيتها العامرية، وأعتقد أنه يرى فيكِ شيئًا من والدته.

- أما أنا فلا أحبه.

- لماذا اخترته هو بالذات إذًا ؟! كنتِ تستطيعين انتقاء أي فتىً آخر تقومين بتدريبه .. لماذا آزر بالذات إن كان لا يعني لكِ شيئًا وكنتِ تحشدين له كل هذا الكره ؟!

- لأنه الوحيد من بين فتيان الوادي القادر على تنفيذ العهد.

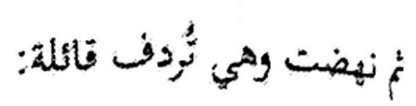
رغم إلحاحها عليه - إلحاح بُثينة على آزر - إلا أنه لم يخبرها بسر ذلك العهد؛ وهذا ما دفع بُثينة إلى أن تستغل هذه الفرصة المواتية الآن وتسأل العامرية:

- تُرى ما هو العهد الذي طلبتِه من آزر ؟

- أتريدين نصيحة لكِ وللزمان يا بُثينة ؟

- نعم

- أبقي أنفكِ في وجهك، ولا تحشريه في شؤون الآخرين.



ثم نهضت وهي تُردف قائلة:

- لقد هدأ صياح المزعج، فإما أنه مات، وإما أن وجعه قد خف.

ثم أردفت وهي تسير ناحية الدار: تعالي نرى أي مصيبة حلت به.

**

حين دخلتا إلى الدار شاهدتاه وهو متدثّر باللحاف؛ فقالت بُثينة في ارتياح:

- جيد، يبدو أنه خلد إلى النوم.

لم تعلق العامرية وظلت تنظر نحو السرير وثمة شيء غير مريح يدور ببالها؛ إنها تعرف جسد تلميذها جيدًا وهذا الجسد الذي تراه متدثرًا تحت اللحاف أمامها يبدو مختلفًا بعض الشيء؛ الأمر الذي دفعها لأن تزيل اللحاف من فوق الجسد لتكتشف أنها كانت محقة في ارتيابها؛ فقد كان المتدثر باللحاف هو قيس وليس آزر.

قالت في غضب:

- أين ذهب صاحبك المعتوه ؟!

- لا أدري - قال مرتعدًا - فقد طلب أن آخذ مكانه بينما غادر مع حواء إلى مكان لا أعرفه.

تساءلت بُثينة في قلق:

- أين عساه يكون قد ذهب وهو بتلك الحالة ؟

لم تنطق العامرية بشيء، ولكن ملامحها بدت متزنة. وكأنها فطنت إلى ما دار في ذهن آزر وإلى المكان الذي ذهب إليه؛ فحركت كتفها الأيسر بهزّة طفيفة، ليلتقط غرابها تلك الإشارة ويطير متجهًا صوب المكان الذي فكرت به.

**

(فوق سقف دار الندوة)

تسلل الاثنان - كلٌّ من آزر والذئبة حواء - إلى سقف دار الندوة؛ يسيران بخطوات خفيفة فوق سقف الدار المكون من الطين وسعف النخيل؛ كانت أصوات خطواتهما ستُكشف بالتأكيد لولا أن غطت عليها أصوات المعازف وغناء الجواري في الأسفل .. لقد جاء إلى هنا مدفوعًا بالفضول؛ يريد أن يرى عامر بن لُكيز: الرجل الذي سيرتبط به في نبوءة عَجيبة، فهو والد تلك الطفلة التي جاءت نبوءة الكاهن فيها بأن حارسها يخلد اسمه في تاريخ العرب.

لم يسبق لآزر أن شاهد عامر بن لُكيز من قبل؛ فقد قضى ذلك الرجل جُل حياته في اليمن وكان لا يأتي مكة إلا قليلًا فيرى أهله ويتفقد أحوال داره ثم يعود سريعًا إلى تجارته. ورغم ذلك فإن آزر لم يكن بحاجة ليبحث عنه بين الوجوه؛ كان يكفيه فقط أن يختلس النظر من خلال أحد شقوق السقف إلى الرجل الذي كُن الجواري يطفن حوله بالدفوف ويتوجهن إليه بالغناء فيعرف أنه الرجل المنشود.

في الجهة المقابلة:

لم تكن الذئبة تعرف السبب الذي جاء بها جروها إلى هنا من أجله.

ولكنها كانت سوف تتبعه دون تردد حتى لو أنه قادها نحو الجحيم، فمكثت مكانها تتأمله - تتأمل آزر - شعره الطويل المعقود فوق رأسه على هيئة ذيل حصان والذي باتت مربيته بُثينة مؤخرًا تُصر على أنه يكون أجمل بهذه الطريقة، عيناه الكحيلتان الناعستان، وجهه الأمرد الوسيم، ولون بشرته الأشبه بلون تُربة البطحاء، فكان أحسن الأشياء خِلقة في عيني أمه الذئبة، والتي كانت في تلك اللحظات - وهي تتأمله - في حالة من الانبساط والأمان الأبدي. لكن ذلك الأمر لم يستمر طويلًا فما هي إلا لحظات يسيرة حتى لاحظت تبدلًا رهيبًا في ملامح آزر؛ الذي بدا وكأنه لمح مصيبة تحدث في الأسفل ..

وكان هذا ما حدث في دار الندوة:

(ما حدث في دار الندوة)

فبينما كان آزر ما يزال يختلس النظر إلى الأسفل من خلال ثقب السقف، وكان كل شيء يمضي بشكلٍ طبيعي إذ دخلت إحدى الجاريات إلى دار الندوة وذهبت قاصدة سيدها عامر لتنحني عند أذنه وتهمس فيها بخبرٍ ما، لينفجر عليها سيدها غاضبًا:

- قبحكِ الله يا وجه الشؤم؛ وقُبح ما جئتِ به الساعة !

كانت تلك الصرخة هي ما أوقفت مظاهر الاحتفال في دار الندوة؛ وجعلت أحد السادة يتساءل مستفهمًا:

- على رسلكَ يا عامر، وأخبرنا ما الذي جاءت تنقله لك الجارية ؟

- أخبرتني أن زوجتي وضعت مولودة أُنثى.

لم يكن هذا هو الشيء الذي فاجئ آزر؛ فهو يعلم مسبقًا من خلال نبوءة الكاهن أن زوجة عامر بن لُكيز ستضع مولودة أنثى هذا اليوم، ولكن ما فاجأه وخلع قلبه وجعل ملامحه تتبدل تلك الساعة هي العبارة التي قالها عامر للجارية:

- اطلبي من عبيدنا أن يئدوها.[12]

---

[12] يئدوها بمعنى يدفنوها حية.



ومع انتهاء جملته تلك نهض عامر وغادر الدار،

وبمغادرته انفضت الأمسية وبدأ الجمع ينسلون واحدًا واحدًا إلى الخارج، بينما ظلت حواء تنظر إلى وجه جروها المتخشب كصنم وهي لا تدري ما الذي حلّ به أو الذي كان يفكر فيه.

١١

عند منتصف تلك الليلة:

وصل عامر بن لُكيز إلى باب داره بجسد مثقل بالخمر، وقد تردد قليلًا قبل أن يدخل الدار وكأنه ما عاد يرغب بها ولا برؤية من فيها، وكاد أن ينصرف من هناك لولا أن كان التعب قد تمكن منه وأجبره على الدخول .. فمرَّ بمحاذاة حجرته متجاوزًا إياها إلى حجرة أخرى؛ إنه لا يريد النظر إلى وجه زوجته، وكأنما كانت هي المسؤولة عن جنس الجنين الذي وضعته ولكنه قبل أن يدخل الحجرة الأخرى، سمع بكاء الصغيرة فجُن جنونه عندما أدرك أنهم لم ينفذوا أمره؛ فاقتحم حُجرة زوجته صارخًا راعدًا مثل جمل هائج:

– أما أبلغتكِ جارية السوء تلك بما كنت قد أمرتها به ؟!

– بلى؛ ولكنني أبيتُ أن أعطيها العبيد ليئدوها – وأضافت تَليدة وهي تنحني والرضيعة بين ذراعيها تقبل قدميه وتتوسله من بين دموعها وشهقات بكائها:

– ناشدتك بكل ما هو مُقدس إليك أن تبقيها.

لم تحرك فيه توسلاتها قيد أُنملة، وواصل يصرخ عليها وهو لا يصدق أن أحدًا من داره قد عصى أمره، ولولا أنها تشاركه نصف تجارته بمالها لطلَّقها الساعة:

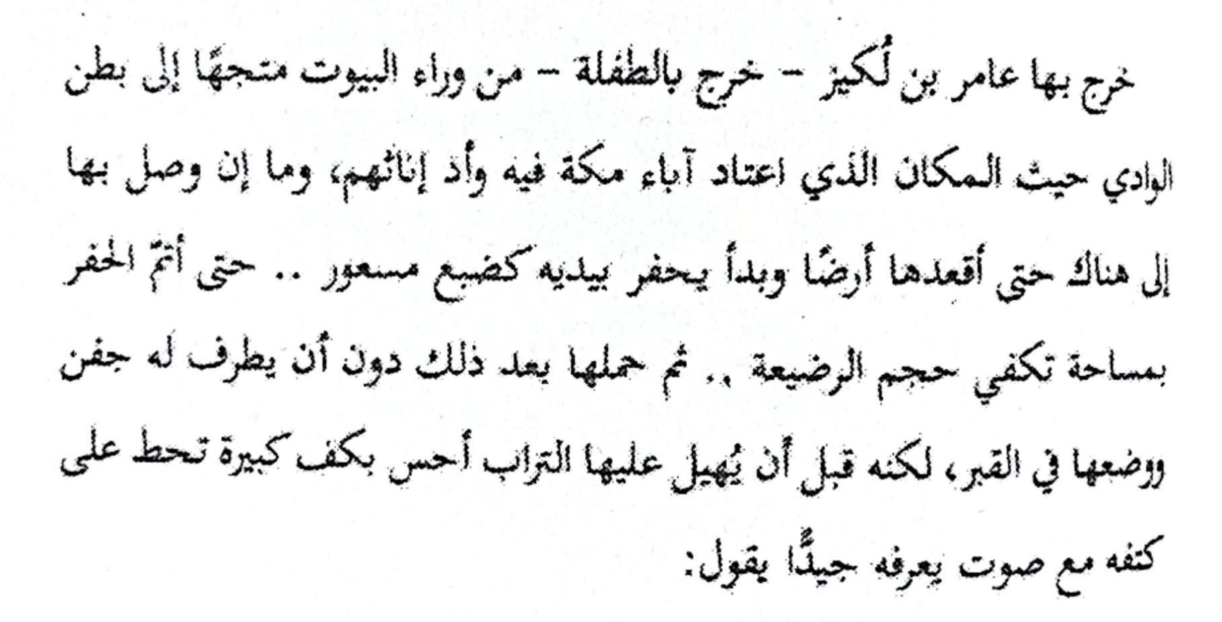
- كيف سولت لكِ نفسكِ عصيان أمرٍ قد أمرتُ به ؟!

ولم يعطها الفرصة لتتحدث؛ بل انقضّ عليها لينتزع الرضيعة من بين ذراعيها وهو يقول:

- خيرٌ للمرء أن يفعل الشيء بنفسه؛ حتى يتأكد من تمامه !

ثم استدار بعد عبارته تلك والرضيعة تبكي بين ذراعيه، وغادر الدار بينما زوجته من خلفه تتضرع إليه أن يُبقيها، وقد منعها مرضها وجسدها المُثقل بسبب الولادة أن تلحق به.

١٢



خرج بها عامر بن لُكيز - خرج بالطفلة - من وراء البيوت متجهًا إلى بطن الوادي حيث المكان الذي اعتاد آباء مكة فيه وأد إناثهم، وما إن وصل بها إلى هناك حتى أقعدها أرضًا وبدأ يحفر بيديه كضبع مسعور .. حتى أتمّ الحفر بمساحة تكفي حجم الرضيعة .. ثم حملها بعد ذلك دون أن يطرف له جفن ووضعها في القبر، لكنه قبل أن يُهيل عليها التراب أحس بكف كبيرة تحط على كتفه مع صوت يعرفه جيدًا يقول:

- على رسلك يا عامر.

دون أن يستدير قال عامر بن لُكيز وهو يغالب دموعه:

- ذرني أيها الحارث .. ذرلي وهذ العار وحيدً !

- ليستَ عارًا؛ فإني واللات أشعر بأنها ستكون فأل خيرٍ علينا.

التفت عامر نحو صاحبه متعجبًا مما سمع وهو يقول:

- ومنذ متى كُنّ فأل خير ؟!

- إنهن دائمًا فأل خير؛ نحن الذين نتشاءم بهن فقط.

رغم دموعه انبعثت منه ضحكة طويلة، وهو يعلق مستفهمًا:

– أيقول هذا رجلٌ وأد يصف إناث مكة، حتى أصبح وأد الإناث عنده نوعًا من الهواية والتسلية ؟!

جلس الحارث إلى جوار القبر ومد يده ليحمل الرضيعة من جوفه ويرقدها حضنه، ثم يقول مبتسمًا وهو ينفض الغبار عن رأسها ووجهها الذي ما تزال تنبعث منه رائحة الحليب:

– لا أدري لم استبشرتُ بهذه الرضيعة خيرًا، ولكنه شعور لا أجد له تفسيرًا فدعها بحق هُبل عليك، وحق صحبتنا التي امتدت خلال هذه السنوات الكثيرة.

لقد ترك عامر تجارته في اليمن وجاء إلى مكة متنازلًا عن فرصة ثمينة كانت ستجمعه برجل مهم في قصر آل حِمير، فتمهد له الطريق لتحقيق أحد أحلامه الكُبرى: وهو لقاء مرتقب يجمعه (بالتُبع اليماني)[١٣] لقد جاء إلى مكة وهو متأكد من أن زوجته ستضع له غلامًا ذكرًا، كيف لا وقد أجزل القرابين لهُبل وكان طوال الشهور التسعة الماضية يدعوه صباح مساء ليرزقه بالمولود الذكر؛ لذلك كانت صدمته عظيمة اليوم حين نقلت له الجارية خبر ولادة الأنثى؛ وأحس بألّا شيء سوف يُطفئ غضبه غير أن يُخفي تلك المولودة بنفسه عن وجه الدنيا.

---

١٣ تُبع هو اسم استخدمه أهل اليمن القدماء في زمن المملكة الحِميرية، ومعناه الاصطلاحي الملك.



لم يكن عامر مستعدًا لأن يتنازل عن قرار الوأد من أجل أي أحد، باستثناء الحارث بن الأجهر، ليس فقط لأن الحارث سيد سادة الوادي ولا بسبب وجاهته بين العرب ومكانته العظيمة في نفوسهم .. بل بحق الصحبة التي جمعتهما منذ أن كانا طفلين يلهوان بين الأصنام حول الكعبة:

-كُرمى لك يا حارث.

ثم ما لبث قليلًا حتى أضاف متسائلًا:

- ولكن أتظن أنها بالفعل قد تكون فأل خيرٍ علينا ؟

ابتسم الحارث وهو يقف حاملًا الرضيعة بين ذراعيه ويقول:

- دعنا نعقد الرهان .. فإن فاز ابني كعب بلقب صِنديد العرب يوم الغد تركنا الصغيرة تحيا وقد ثبت لنا فعلًا أنها فأل خير؛ وإن حدث غير ذلك فهذا القبر لن يتغير مكانه.

١٣

النِزال الأخير

"لقب صِنديد العرب - بين آزر وكَعب"

احتشدت الجماهير حول الجبال المحيطة بساحة القِتال في حالة من الترقب الشديد والحماسة التي خفقت لها القلوب وطربت لها الوجدان، كان نِزالًا تصعب فيه التكهنات: فبالرغم من أن آزر كان الأقوى إلا أن كتفه مصابة، وجسده يضج بالجروح وبحاجة لمزيد من الوقت حتى يصبح جاهزًا للمواجهة.

في الجهة المقابلة كان الجميع يدرك أن كَعب بن الحارث ليس بالمنافس السهل؛ فهو بارع في استخدام السيف والدرع واستغلال نِقاط ضعف الخصم؛ ولكنه اليوم لن يعتمد فقط على مهارته للفوز .. بل سيعتمد على شيء آخر أكثر فعالية: فوالده الحارث بن الأجهر وسادة الوادي كلهم سيفعلون المستحيل حتى يتوجوه باللقب ولا يسمحوا لخصمه عديم النسب ذاك بأن يعلق اسمه على أستار الكعبة.

**

قُرع الطبل إيذانًا ببدء النِزال،

رغم ذلك، لم يشتبك الخصمان فورًا كما توقع الجميع، بل أخذا يتحركان ببطء حول بعضهما البعض بطريقة دائرية وكل واحد منهما يرفع درعه في وضعية الدفاع، وكأن كل واحدٍ منهما كان يحسب ألف خطوة قبل بدء الانقضاض ثم فجأة بادر آزر بالهجوم .. ورغم ثِقل الدرع الذي يحمله بسبب ذراعه المصابة، إلا أنه قفز برشاقة وخفة وهبط بسيفه على خصمه الذي أحسن استقبال الضربة بدرعه .. ثم اشتبك الخصمان في نزال سريع بالسيوف واستمرت المبارزة لوقت طويل قبل أن يُقدم آزر على مناورة بارعة جعلت كَعب يسقط أرضًا.

كان آزر يستطيع أن يستغل الموقف ويحسم النِزال تلك اللحظة لصالحه ولكن لسببٍ خاص لا يعلمه إلا هو .. قرر أن يُعطي خصمه فرصة أخرى لينهض ويقاتل مجددًا .. وبالفعل استغل كَعب تلك الفرصة ونهض مستعيدًا توازنه وفي رأسه ينهض سؤال وحيد: تُرى ما هو السبب الذي جعل آزر يُحجم عن مهاجمته وهو ممدد على الأرض بوضع مكشوف ؟! تُراه قد فعل ذلك لكي يُهينه أمام الجماهير ويُثبت لهم أنه سيد القتال بلا منازع ؟!

على كل حال: لم يفكر كَعب طويلًا بالسبب؛ كان عليه أن يتصرف بسرعة فهو لا يستبعد أن يقوم والده بسفك دمه أمام الناس إن نجح هذا البربري في إطاحته مرة ثانية ..



وسرعان ما صعدت إلى رأسه فكرة ذكية، فأرجع سيفه إلى غِمده وسط أنظار الجماهير التي تساءلت عن السبب الذي قد يدفع ذلك الصبي إلى إغماد سيفه وهو في حلبة الصراع ؟! .. حتى أن آزر تساءل في نفسه عن السبب الذي دفع خصمه ليُغمد سيفه في هذا التوقيت .. ولكن كَعب لم يلبث كثيرًا حتى جعلهم يَشهدون الإجابة بأعينهم؛ حيث أمسك مقبض دِرعه بيديه الاثنتين ثم راح يندفع به ككتلة واحدة تجاه خصمه ليرتطم به !

ندت عن آزر آهة ألم وشت بنجاح خطة خصمه الذي قصد بهجمته تلك أن يستهدف نقطة ضعفه – كتفه المصابة – فأُصيب بوجع شل أطرافه وأسقط الدرع والسيف من يديه .. لم يَلبث كَعب طويلًا بعدها حتى عاد يهجم بنفس الطريقة مستهدفًا ذات المكان، ليسقط آزر بعدها أرضًا ويدفعه الألم إلى أن يعلن استسلامه أمام الجميع.

ورغم انتهاء النزال وحسم النتيجة لصالح كَعب .. إلا أن هنالك غضبًا دفينًا ظل بداخله من تلك الإهانة التي ألحقه بها آزر أمام الجماهير قبل قليل عندما أطاح به وتعمد أن يعطيه فرصة أخرى للنهوض وكأنه كان يُنازل فتىً صغيرًا .. وهذا ما جعل كَعب يواصل هجومه عليه حتى بعد انتهاء النزال، فجعل يركله على وجهه وصدره وسط صيحات بعض الجماهير المعترضة على هذا الاعتداء السافر والمخالف لقوانين المسابقة.

لم يجرؤ أحد على أن يعترض ابن السيد غير مخلوق واحد فقط هو من تجاسر واعترض طريقه؛ لقد كانت الذئبة حواء التي برزت من بين الجماهير فجأة وكأنها جاءت من العدم لتقف أمام كعب وتزمجر عليه في تهديد صريح بالمهاجمة .. هنا تدخلت مجموعة من الفرسان ليعاقبوا الذئبة التي اعترضت ابن سيدهم وقد هموا بقتلها .. فانتبه آزر لما كانوا بصدد القيام به .. وبالرغم من ألمه وتوجعه إلا أنه انتصب واقفًا بسيفه ودرعه أمام الفرسان ليصدهم عن أمه، لقد كان عددهم كبيرًا وآزر يدرك أنه لن يستطيع الصمود بمفرده أمامهم ولكنه سيقاتلهم وحده.

- لا، لست وحدك.

كان صاحب الصوت هو قيس الذي وقف إلى جواره مُلصقًا كتفه بكتفه؛ فتمتم آزر يُجيب عليه:

- ما الذي تفعله يا قيس ؟ ابتعد، فهذه ليست حربك !

صامدًا وقف قيس مكانه غير متزحزح، وأردف وهو يُشهر سيفه:

- أما سمعت أن أهل الشمال لا يتركون أصحابهم ؟

ارتبك السادة لا سيما وأن هذا يُنذر بالخطر فإن مُسَّ قيس بسوء فإن عشيرته لن تسكت وهذا سيدخلهم في حرب لا معنى لها مع قبائل الشمال؛ ولأجل ذلك تدخل الحارث:

- على رِسلكم يا قوم فما جئنا اليوم لهذا !



يهتف أحد الجماهير من فوق الجبل في اعتراض وقد كان يرغب بالاستمتاع في مشاهدة القِتال:

- ولكن الذئبة كادت أن تهاجم ابن السيد !

- وأنا أبوه يا رأس الفتنة وأعفو – ثم أضاف كما ليحصد الثناء:

- ثم أنني لا أنسى كفالة سيدنا نُمير بن رَبيعة لهذه الذئبة .. وما دامت لم تسفك دمًا فإننا نحفظ الجوار ولا نقطعه.

كان الحارث يُحسن استغلال المواقف دائمًا لصالح تلميع صورته عند الآخرين، وبالفعل ما كاد ينتهي من كلامه ذاك حتى حصد مزيدًا من الشعبية في النفوس وراحت الجماهير تُردد كلمات الشكر والثناء عليه بينما هم يتجهون قاصدين الموائد التي نُصبت حول دار الندوة على شرف الفائز كما جرت العادة، ليأكلوا ويَشربوا ثم يَشهدوا مراسم تعليق اسم الفائز على أستار الكعبة.

**

خلت الجبال المحيطة بالحلبة من الجماهير،

ولم يبقَ غير آزر والذئبة وصاحبه قَيس الذي انتبه وحده إلى ملاحظة غريبة، ثم كما ليتأكد منها فإنه تناول الدرع من الأرض وحذف به نحوه قاصدًا جهة ذراعه المصابة:

- هاك – قال وهو يرميه – أمسكه إن استطعت.

كان الغريب في الأمر هو أن آزر التقط الدرع الحديدي بذراعه المصابة بسهولة دون أن ينتبه للفخ الذي نُصب له، وما إن شاهد قيس ذلك المنظر حتى أدرك أنه لم يُهزم في النزال بسبب كتفه المصابة؛ فها هو الآن يلتقط الدرع بها وكأنها سَليمة معافاة؛ تُرى لماذا اختار أن يترك ذلك المجد طواعية منه رغم قدرته على نَيله ؟! ..

في تلك اللحظة التفت ثلاثتهم نحو الخلف بعد أن سمعوا وقع خطوات تقترب، ليجدوا العامرية التي قالت ونظراتها مُسلطة كما السيف على آزر:

- اتبعني.

تحرك آزر تتبعه الذئبة حواء، فصاحت العامرية: اتبعني وحدك.

توقفت الذئبة وكأنها فهمت الأمر .. بينما أكمل آزر الطريق وحده يسير خلف العامرية مطأطأ الرأس وهو لا يدري ما الذي سوف تفعله به، ولا كيف سيُبرر لها الهزيمة.



مراسم تنصيب صنديد العرب، كعب بن الحارث بن الأجهر

سار سيد الوادي ممسكًا بيده رقعة الجلد التي كتب اسم ابنه عليها بماء الذهب "كعب بن الحارث بن الأجهر" ليتجه بها مع السادة ناحية الكعبة تحفهم الجماهير وهم يحملون الفائز فوق الأعناق ويتنادون باسمه ويهتفون ويُنشدون الأشعار، حتى إذا وصلوا إلى هناك علَّق الحارث رقعة الجلد على أستار الكعبة بيديه وقد ازداد حماس الجماهير وارتفعت أصواتهم بالتصفير والهُتاف.

صاح الحارث بصوتٍ جهوري:

- يا مَعشر العرب، يا ضيوف مكة وعِزها ..

هنا توقفت الجماهير وأصاخت السمع إليه وهو يخطب فيهم:

- يا مَعشر العرب وضيوف مكة وعِزها .. لقد حللتم بدارنا أهلًا ونزلتم في حِمانا سهلًا .. فأنتم الساكنون في صدر مكة ونحن الخارجون إلى أطرافها، نجتمع اليوم على شرف هذا الفوز العظيم .. وما ولدي كَعب إلا فتىً عربي فخره أنه منكم وعزه أنه صَنيعتكم؛ وهو منذ اليوم صِنديد العرب وفارسها والمُنافح عنها .. وإني لأتضرع إلى الآلهة أن تُطيل عمري حتى أُعلق اسم الفتى القادم بعد خمسة عشر عامًا بنفسي.

ثم أنهى حديثه بحماس وهو يُردد:

- أُعلُ هُبل، أُعلُ هُبل! ![14]

فردد الناس ذلك النداء بحماس وقد أضافوا عليه اسم الفائز:

- أُعلُ هُبل، كَعب بن الأجهر صِنديد مكة والعرب!

استمرت الاحتفالات بعد ذلك والناس يأكلون ويسكرون ويمرحون في بهجة، وبينما هم كذلك إذ اقترب عامر بن لُكيز من صاحبه الحارث وقال وهو يمد إليه قدح الخمر:

- لقد صدق حدسك حين قلت إن الطفلة فأل خير؛ وها قد كسبت الرهان يا أبا كَعب وقد سلمت الطفلة من الوأد وكُتب لها بفضلك حياة جديدة؛ فاختر لها اسمًا.

الحارث وهو يأخذ من يده القدح:

- إنني أسوأ من يختار الأسماء، وإنني لأتنازل عن هذا الحق لك.

- وأنا لا أقلُ عنك سوءًا، ما رأيك أن نختار لها ذات الاسم الذي اختارته لها والدتها.

- وما ذاك ؟!

- اسم غريب، لقد اختارت لها اسم: **قَمر**.

---

14 كلمة عربية تُقال وقت الانتصار.



الحارث:

- غريب، ولكنه جميل.

ثم أضاف وهو يرفع قدح الخمرة ويُفرغ بعضها في جوفه:

- لنشرب نخب ابنتك صاحبة الاسم الغريب، ولنأمل ألَّا تشبهك عندما تكبر.

يضحك عامر بن لُكيز وهو يرفع كأسه ويقول:

- لنأمل ألَّا تُشبه أحدًا منا؛ فتكون تلك مصيبة عليها.



١٤

آزر
العامرية
العهد

مرَّ وقت طويل والعامرية تحدق بصمت نحو القمر المكتمل في السماء، بينما آزر ينتظرها تشتمه أو تضربه ولكنه لم يتخيل أبدًا أن تفتح فمها لتقول هذه الكلمات:

- أعلم أن هزيمتك اليوم كانت ضمن اتفاق عقدته مع الحارث.

اتسعت عيناه من الدهشة وبينما هو يفكر بالطريقة التي استطاعت بها معرفة ذلك السر .. إذ وقعت عيناه على الغراب الأسود الذي كان يستقر فوق كتفها الأيسر؛ فاتسعت عيناه أكثر وقد أدرك الحقيقة: الغراب هو من ينقل إليها ويخبرها عن كل ما يحدث وهو الذي كان شاهدًا على ما حدث ليلة البارحة بينه وبين الحارث بن الأجهر.

ما حدث ليلة البارحة،
ونقله الغراب الأسود لسيدته
(الصفقة)

في تلك الليلة: سمع الحارث أصواتًا غريبة قادمة من خارج الدار وحين ذهب ليستطلع الأمر شاهد شيئًا أخافه: لقد شاهد عبده جحش مُمدًّا على الأرض بعد أن أُوسع ضربًا.

ظن الحارث في البداية أن هنالك جماعة هاجمته فصاح قائلًا:

- من فعل بك هذا، لأمك الثُكل ؟!

مدَّ جحش إصبعه نحو مكان ما .. ليلتفت الحارث صوب المكان المشار إليه ويشاهد على أضواء المشاعل شبح فتًا صغير بدا أنه لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره:

- لقد حفرت قبرك بيدك أيها البربري اللعين.



قال ذلك ثم أمسك مقبض سيفه وهمَّ بمهاجمة آزر؛ إنها فرصة سانحة لقتله فقد اعتدى ذلك الصبي على داره وألحق الأذية بعبده وبات بوسع الحارث أن يقتله دون أن يلومه أحد على مخالفة وصية السيد، ولكن جملة واحدة قالها آزر كانت كفيلة بأن تغير الموقف بأكمله:

- ألا تريد أن ينال ابنك لقب صِنديد العرب غدًا ؟

ما إن سمع الحارث تلك الجملة حتى وقف وقال بنبرة مستفهمة:

- أفصح.

- جئتُ لأخبرك بأنني مستعد لأن أتنازل غدًا عن الفوز لابنك كعب.

الحارث يعلم أن الفوز باللقب سوف يُكسب آزر مكانة بين العرب؛ وهذا ما كان الصبي يريد الحصول عليه طوال عمره، فما الذي يجعله الآن يتنازل عن الفوز بهذه السهولة فسأله:

- وما المقابل ؟!

شبح ابتسامة غامضة طفت على شفتي آزر وهو يقول:

- أن تمنع عامر بن لُكيز من وأد ابنته.

- طفلة لا تعرفها، ولا تربطك بها صِلة دم، فما مصلحتك من هذا ؟

- أيهما يُهمك أكثر: أن تعرف مصلحتي في هذا الأمر أم أن ينال ابنك اللقب ؟!

- بل الثانية.

- إذًا لا تحشر أنفك فيما لا يُهمك.

متجاوزًا قِلة أدبه، سأله الحارث باهتمام:

- أضمن لك حياتها ولكن كيف أضمن أنك لا تكذب ؟

- اختر الضمانة التي تريدها.

- سأعقد الرهان مع عامر؛ فإن فاز ابني غدًا عاشت الفتاة، وإلا فقبرها ينتظرها - ثم مدَّ يده في الهواء مصافحًا وهو يقول:

- ما رأيك ؟

صافحه آزر وهو يرد:

- مباركٌ على ابنك اللقب.

وهكذا عقد آزر (الصفقة) مع الحارث؛ فكانت تلك أول مهمة يؤديها كحارس للقمر وأول خطوة يضعها في طريقه الطويل نحو تحقيق هدفه الأكبر.

**

- أعلم أنكِ غاضبة مني يا عامرية ولكن ..

- لستُ غاضبة؛ لقد خسرت اللقب؛ ولكنك كسبت ما هو أهم وأعظم وهو أن تكون رجلًا؛ فالذكور تلدهم أمهاتهم ولكن الرجال تصنعهم المواقف.

العامرية تدرك أن آزر لم ينقذ الطفلة من الوأد بسبب النبوءة فقط؛

بل كان سينقذها حتى لو كان لا يرجو منها شيئًا، وهذا ما أكسبه احترامها.

نهضت العامرية من مكانها وسارت نحو حافة الجبل ثم رفعت بصرها وأخذت تنظر إلى السماء وتقول:

- قرص القمر مُكتمل في نصف عباءة الليل، أليس كذلك ؟

ما إن سمع الغراب تلك الجملة حتى قفز من فوق كتفها وحلق مبتعدًا دون أن ينظر إلى الوراء .. بينما احتشدت دموعٌ غريبة في عيني آزر، دموع ليس لها تبرير أو سبب واضح، وقال يجيب عليها:

- نعم، إنه كذلك.

وبينما كانت اليمامة بنت أدحج العامرية تحدق إلى غرابها الذي ابتعد كثيرًا في الأفق ولا تُزحزح بصرها عنه وشفتاها ترسمان ابتسامة غامضة، إذ تلقت طعنة قاتلة في ظهرها أنفذها إليها آزر مستخدمًا سيفه، ثم أعقبها بطعنة أخرى بواسطة خنجر أسود خاص حفر به لحمها وعظامها حتى أنشب رأسه الحاد في قلبها؛ لتسقط العامرية بعدها على ركبتيها أرضًا، يَسيل من فمها المبتسم خيطٌ دم أحمر يُعلن عن نهايتها، وخيط دمٍ آخر أسود مجهول المصدر، لا يخرج عادة من أبناء بني البشر.

كل ذلك لم يكن يَعنيها في شيء .. كل ما كان يُهمها تلك اللحظة فقط هو أن تواصل النظر إلى غرابها الأسود وهو يُحلق مبتعدًا ويَنعق مودعًا بنبرة باكية، حتى إذا اختفى خلف السُحب الرمادية سقطت العامرية على وجهها ميتة ..

عانق آزر جثتها وهو يبكي ويهمس في أذنها " هذه المرة فقط " ثم حملها على متن الحصان، وابتعد بها من هناك قاصدًا مكانًا ما .. تُرى هل كانت العامرية أمه ؟! إنه لا يدري ..

كل ما يعرفه تلك اللحظة فقط، هو أنه طعن قلبه حين طعنها.

١٥

عدد من المنازل الطينية الكثيرة تتوزع بشكل شبه منتظم فوق هضبة واسعة لعشيرة تبعد مسافة نصف يوم .. منزل واحد فقط كان ينهض بعيدًا عن البقية .. تسكنه امرأة عجوز وحيدة طاعنة في السن ما إن سمعت وقع حوافر خيل تقترب من باب دارها حتى خرجت لتستقبل القادم وكأنها كانت على موعد معه .. كان القادم هو فتىً يافع يَسير نحوها ممسكًا لِجام حصان تتمدد على ظهره جُثة.

قال وهو يقف أمام المرأة بصوت جنائزي:

- لقد أوصتني أن آتي بجثتها إليكِ، بعد أن أقتلها.

أمسكت المرأة العجوز بوجهها - وجه العامرية - والذي عجز الموت عن طمس ملامحه الفاتنة، وضعت قبلة على جبينها، ثم قالت من بين دموعها:

- نعم؛ فلا مكان أفضل من جوار أمها لتنام فيه رقدتها الأخيرة.

ثم أردفت وهي تُمسك بلجام الحصان وتسير به خلفها:

- تعال أعني على دفنها يا آزر؛ ثم سأخبرك بكل شيء.

**

لم يستغرق الدفن وقتًا طويلًا؛ فقد كان القبر محفورًا وكأن العامرية كانت قد طلبت من والدتها أن تحفره لها هذه الليلة، وبعد أن انتهيا من الدفن جلست والدة العامرية إلى جوار القبر وقالت:

- تعال ادنُ مني يا آزر لأحكي لك قصة أجمل فتاة في جزيرة العرب.

جلس آزر بالقرب منها وما كان يعلم أنه الآن بصدد سماع القصة التي لا يعرفها أحد .. القصة التي أوصت العامرية والدتها أن تخبر آزر بها بعد رحيلها عن الدنيا.

- عُرفت العامرية في صِباها بجمال نادر جعل الرجال يتسابقون لخطبتها يا آزر .. ولكنها كانت ترفض كل من يتقدم إليها دون إبداء الأسباب حتى أن كل أترابها[15] من الفتيات كُن قد تزوجن وأنجبن وأصبحن أمهات إلا العامرية؛ وهذا ما جعل الألسن تلوك سمعتها وتحكي عنها الأقاويل؛ فأخذ الناس يقولون: تالله ما أحجمت تلك الفتاة عن الزواج إلا لعيب فيها أو مفسدة تُخفيها .. ولما كثر الكلام المسموم حولها ضاق صدري فواجهتها عند بئر العشيرة، وطلبتُ منها أن تخبرني عن السبب الذي يدفعها لرفض الزواج؛ فألححت عليها وألححت حتى دفعتها لأن تخبرني.

---

[15] الأتراب هنا تعني الفتيات اللائي بنفس عمرها.

كان عذرها الحب فاطمأنت والدتها عندما عرفت السبب؛ فحتى وإن كان الحب أمرًا محرمًا على نساء العرب إلا أنه أهون من الأسباب الباطلة التي يدعيها الناس عليها، قالت متسائلة:

- أهو رجل نعرفه ؟

- لا، إنه ليس رجلًا.

- ويلكِ - قالت والدتها بذهول بريء - أهي امرأة ؟!

- لا يا أمي، ليس رجلًا وليست امرأة.

- أهو لُغز ؟

- ليس لغزًا.

- أفصحي بحقي عليكِ ..

خافت العامرية أن تخبر والدتها بالحقيقة دفعة واحدة فلا تستوعب الخبر، وهذا ما جعلها تلجأ لتمرر الأمر إليها بالتأني، فقالت تمهد لها الإجابة:

- إنه ليس من بني الإنس.

لحظات من الصمت استمرت بينهما قبل أن ينفرج فم والدتها بتلك الأمنية البسيطة:

- لكم أتمنى الآن أن يكون بكِ عِلة ما، أو مَسلك سوء أو مرض يمنعك من الزواج ولا أن يكون ما تقولينه صحيحًا.

سارت العامرية نحو البئر – في تصرف غامض – ثم ارتقت حافته وألقت بنفسها في جوفه الذي لا يُرى قاعه لفرط عمقه .. صاحت الأم وهي ترى ابنتها تهوي أمام عينيها .. وركضت نحو البئر ولكنها لم تكد تصل إلى حافته حتى رأت أمرًا عجبًا: لقد ارتفعت العامرية في الهواء أمام عينيها محمولة على ذراعي مخلوق نحيل، طويل، تُرابي البشرة، أحمر الشعر وكأن فوق رأسه شُعلة من نار قانية .. وبالرغم من أذنيه غريبتي التكوين، الطويلتين والأشبه بأذني القِط إلا أن ذلك لم يزد ملامحه الحادة إلا وسامة وجمال، نزلت العامرية عن ذراعيه، ثم سارت نحو والدتها المتجمدة أطرافها لفرط الصدمة وقالت تقدمه إليها:

– اسمه (أعصم) وهو من بني الجان يا أمي.

لقد سمعت تلك المرأة – والدة العامرية – عن قصص تجمع بني الإنس بالعالم الآخر، ولكنها كانت تظن دومًا أن تلك الأخبار ستظل مجرد قصصٍ تسمعها ولن تحدث لها أبدًا، غرابة الموقف هو ما جعل والدة العامرية تتصرف بطريقة غريزية؛ فالتقمت حصاة من الأرض حذفتها نحو ذلك المخلوق ثم أمسكت يد ابنتها وسحبتها خلفها وهي تصرخ:

– لنهرب !



اندفعت الأم تجر ابنتها خلفها بسرعة في الطرقات حتى وصلت بها إلى المنزل .. وما إن تجاوزت بها العتبة حتى أغلقت الباب خلفها وأسندت ظهرها إليه وهي تلهث قائلة:

- لا أصدق أننا نجونا من ذلك الشيطان.

انبعث حينها صوت من العدم، لمخلوق يظهر أمامها وهو يقول:

- سامحتكِ السماء أيتها الخالة، فأنا لستُ بشيطان إنما أنا نفر من جن الوادي.

وأضاف وهو يُقدم إليها قربة من الجلد:

- إليكِ بعض الماء، فلا بد أن قطعكِ كل هذه المسافة قد جعلكِ تعطشين يا خالة.

- تخلخلت عظامك أيها الشيطان !

قالت ذلك ثم خبأت ابنتها خلف ظهرها وصاحت:

- ما الذي تريده منّا أيها اللعين ؟

- هو لا يريد - قال الصوت الرقيق من خلفها - كلانا يُريد منكِ أن تُنصتي إلى حديثنا.

التفتت الأم إلى الخلف - نحو ابنتها - وما إن رأت عينيها حتى لمحت فيهما لمعة الحب الصادقة وأدركت جدية الأمر؛ فقالت بصوت محذر:

- وماذا سيقول الناس عنك يا ابنتي ؟! .. كيف ستواجهين عشيرتك، وتحت أي ذريعة سوف نُبرر لهم هذا الأمر الجلل ؟!

تحدث أعصم قائلًا:

- أنا على استعداد لخط ..

التفتت إليه الأم وقاطعته قبل أن يُتمم جملته:

- اسكت أنت؛ فهذا حديث عائلي لا دخل لك فيه !

ابتسمت العامرية - ليس لظرافة الموقف - بل لمحاولة تخفيف التوتر الذي كان يسيطر على الأجواء منذ البداية، ثم قالت بصوت هادئ وهي تقف إلى جانبه:

- أعصم سوف يكون من العائلة يا أمي.

- اسمعيني يا خالة.

- تخلخلت عظامك ! .. هذا إن كان لديك عظام !

- اسمعيه يا أمي - قالت العامرية - اسمعيه أرجوكِ.

قالت بصوت خرج من بين أسنانها المغلقة:

- تكلم .. أسمعك ..

- أنا على استعداد لخطبتها كما تَسن أعراف بني البشر.

- والناس ؟

- لن يعرف أحد بحقيقة أنني مختلف.

- وهيئتك الغريبة هذه ؟!

- أُجيد مهارة التشكل؛ أستطيع أن أتشكل على نفس هيئتك إن أردتِ رؤية ذلك.

- أرني أنظر ..

تحدث أعصم قائلًا:

- أنا على استعداد لخطـ ..

التفتت إليه الأم وقاطعته قبل أن يُتمم جملته:

- اسكت أنت؛ فهذا حديث عائلي لا دخل لك فيه !

ابتسمت العامرية - ليس لظرافة الموقف - بل لمحاولة تخفيف التوتر الذي كان يسيطر على الأجواء منذ البداية، ثم قالت بصوت هادئ وهي تقف إلى جانبه:

- أعصم سوف يكون من العائلة يا أمي.

- اسمعيني يا خالة.

- تخلخلت عظامك ! .. هذا إن كان لديك عظام !

- اسمعيه يا أمي - قالت العامرية - اسمعيه أرجوكِ.

قالت بصوت خرج من بين أسنانها المغلقة:

- تكلم .. أسمعك ..

- أنا على استعداد لخطبتها كما تَسن أعراف بني البشر.

- والناس ؟

- لن يعرف أحد بحقيقة أنني مختلف.

- وهيئتك الغريبة هذه ؟!

- أُجيد مهارة التشكل؛ أستطيع أن أتشكل على نفس هيئتك إن أردتِ رؤية ذلك.

- أرني أنظر ..

ورغم أنه كان يستطيع بالفعل التشكل إلى هيئتها، إلا أنه كما ليكسب ودها قال بذكاء:

- أود ذلك ولكن جمالكِ لا يُمكن تقليده.

لقد استحت الأم من عبارته تلك دون شك؛ ولكنها واصلت هجومها كما لتداري خجلها:

- ومن سيرضى أن يزوجكما أيها الأحمق ؟!

- كاهن بمكة أعرفه: اسمه شِق.

- أرجوكِ وافقي يا أمي.

لم يكن لديها في الحياة إلا تلك الابنة؛ وكانت تخاف أن تفقدها لو رفضت؛ وهذا ما دفعها لأن تلتزم الصمت .. الصمت الذي لا يعني الموافقة بل يعني قِلة الحيلة.

وهكذا ذهبت العامرية في اليوم التالي مدفوعة بالحُب ومعها أعصم لعقد قِرانهما عند الكاهن شِق، والذي بارك زواجهما في ليلة اختفى القمر من سمائها؛ وطاف حول الكعبة عكس اتجاه الطائفين وهو مضطجع فوق هودج يحمله أربعة من العبيد ليُتمم مراسم الزواج.

**

هنا قطع آزر عليها سرد القصة وهو يسألها في فضول:

- تبدو الأحداث متوائمة؛ فما هو سبب انقلاب حالهما يا تُرى ؟

- لقد قررت قبائل الجن أن تقتل أعصم.

- ولماذا يُقررون ذلك ؟!

- سؤالك هذا يُشبه تمامًا السؤال الذي قاله أعصم للشخص الذي جاء يحذره تلك الليلة المشؤومة.

**

(الليلة المشؤومة)

في تلك الليلة طرق أحدهم باب المنزل بقوة؛

ذهب أعصم ليفتح الباب وهو يعلم أن صاحب تلك الطرقات لا يُمكن أن يأتي إلا بمصيبة وما إن فتح الباب وشاهد ملامح وجه الطارق حتى تأكدت له ظنونه:

- ما بك يا يَغوث ؟!

يَغوث وهو يتلعثم لفرط خوفه:

- لقد بذلتُ كل ما أستطيع لكي أصلك قبلهم يا أعصم؛ فأحذرك من شرٍ قد اقترب !

- تصل قبل من، وتُحذرني ممن ؟

- لقد أُصدر الحُكم ضدك، وقرر الكَهنة إعدامك.

- ولماذا يُقررون ذلك ؟!

- هناك من لَفق عليك تهمة الخيانة؛ وأقنعهم أنك نقلت إلى زوجتك الإنسية أسرار العالم الأسفل.

تدخلت العامرية وقد تناهى إلى سمعها ما دار عند الباب:

- اذهب يا أعصم وأخبرهم أنك لم تفعل شيئًا من هذا.

- لا فائدة - قال أعصم - فلن يتراجع الكّهنة عن حُكم أصدروه حتى لو اقتنعوا بأنني لم أفعل.

تدخل يَغوث:

- سأحاول تعطيل الحرس عن الوصول إليك قليلًا، ولكن تذكر يا أعصم أنك يجب ألّا تكون هنا عندما يصلون إلى منزلك.

- شكرًا لك يا يَغوث، أنا لا أعرف كيف أكافئك.

- مكافأتي أنالها عندما ترحل بأمان من هنا.

كانت العامرية تريد الهرب مع زوجها أعصم لكنها تدرك أن وجودها معه سوف يجعله غير قابل للتخفي بالشكل المطلوب ولذلك فإنها قالت:

- اهرب بسرعة.

- لا أستطيع؛ فقد يقتلونك إن جاء الحرس ولم يجدوني.

- لا بأس؛ فالمهم أن تنجو أنت من الموت.

- لا فرق؛ فالعيش بعيدًا عنكِ والقتل كلاهما موت بالنسبة إليَّ.

- وما الحل ؟!

فكر أعصم قليلًا قبل أن يقول متمتمًا:

- الحل الوحيد هو أن نستخدم ما يتهمونني به.

- ماذا تعني ؟



- يجب أن أكون هنا لأحميك، وألّا أكون هنا عندما يصلون.

- وكيف سيكون ذلك ؟

- هذا يعتمد على رباطة جأشك ورجاحة عقلك؛ فما سأخبرك به سيكون أصعب من أن تصدقيه أو تتعايشي معه .. سيؤلمنا جميعًا ولكنه الحل الوحيد لأن ننجو من الموت، ونكون معًا

- سأحتمل أي شيء؛ المهم أن تكون بأمان ونكون معًا.

كانت العامرية تتوقع الأسوأ، ولكن لم تتوقع أبدًا الفكرة التي كان يفكر بها أعصم، إذ قال:

- سأربطكِ بتعويذة رادعة تحميكِ من شر الكّهنة وتمنعهم من أذيتك.

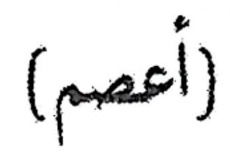
- وماذا بشأنك أنت ؟!

- إنه الجزء الأصعب أيتها العامرية؛ ولكن هذا ما يجب أن تعتادي عليه وتحتمليه - ثم واصل يخبرها: سأفقد قوتي كلها وأتحول إلى مخلوق لا يستطيعون تتبعه ومعرفة هويتي في داخله؛ إنها الطريقة الوحيدة لحمايتك والبقاء معك.

- وما هو هذا المخلوق الذي ستتحول إليه ؟

- **غراب أسود، يستقر دائمًا على متن كتفك الأيسر.**

***



بعد وقت ليس بطويل حطَّم حرس الكهنة الباب ودخلوا للبحث عن أعصم، فتشوا عنه المنزل حتى عجزوا عن إيجاده، فقال أحدهم يُحادث القائد الذي كان خارج المنزل ينتظر نتيجة التفتيش:

- سيدي، لا وجود لأعصم هنا.

في تلك اللحظة دخل قائد حرس الكهنة من باب الدار وما إن رأته العامرية حتى اتسعت عيناها في رعب؛ فقد كان قائد الحرس هو نفسه يَغوث الذي جاء قبل ساعة ليحذر أعصم من الشر الذي قد اقترب، قال يخاطب الحرس وهو يتقدم في المنزل:

- هروب أعصم ليس إلا تأكيدٌ على جريمته.

سأله أحد الحرس: أنقتل الزوجة يا سيدي ؟

اقترب القائد يَغوث من العامرية ولكنه توقف على بعد مترٍ منها؛ إذ إنها كانت محمية بتعويذة - رادعة - تمنع أبناء الجن من الاقتراب أكثر من ذلك الحد، وأخذ يتطلع إليها قبل أن يرد على الحارس:

- امضوا خارج المنزل وانطلقوا للبحث عن أعصم.



استمع الحرس إلى التوجيهات فغادروا المنزل وانطلقوا كُل في مَسالك للبحث عن الهارب، وحين تأكد يَغوث من مغادرة الحرس قال يكاشف العامرية:

- حين انتشر خبر زواج أعصم كنت أول الشامتين به، قلت في نفسي كيف له أن يترك فتيات الجن ويرتبط بفتاة إنسية تتعب وتشيخ وتكبر فتزول عنها فتوة الصِبا ويذهب عنها رونق الجمال .. وهكذا مدفوعًا بالفضول ذهبتُ إلى سوق بني الإنس لأرى تلك الفتاة التي تَعلق بها قلب صاحبي، وما إن وقعت عيناي على جمالك النادر حتى وقع قلبي في هَواك أسيرًا.

ثم سألها:

- أرأيتِ في حياتك أسيرًا يَقعُ في حُب آسره ؟ هذه حالتي معك.

بحقد تكلمت العامرية:

- إذن أنت من لفق عليه تهمة الخيانة !!

- نعم؛ ومن أجل هذا جئتُ أحذره قبل قليل لأحثه على الهرب؛ وإن هروبه الآن لهو بمثابة الدليل الإضافي الذي يُثبت للكهنة تورطه في التهمة الموجهة إليه.

- حلّت عليك اللعنة يا وضيع؛ ألهذا فرقتنا ؟

- إما أن أضمك أنا، أو يَضمك قبرك.

- فالقبر عندي خيرٌ من نجسك.

اتجه يَغوث نحو باب المنزل وقال قبل أن يغادر:

- أتفهم غضبك؛ فلا بد أن جرحك ما يزال ينزف على فِراق أعصم، وإنني لأكثر من يعرفكم يا بني الإنس؛ جراحكم تبدأ كبيرة ولكنها تلتئم مع الوقت؛ ولذلك سأظل أراودك عن نفسك، وآتيك كل يوم لأسألك يا جميل المُحيا، فإذا كنتِ غاضبة رحلت، وإذا نسيتِ اقتربت.

ما إن غادر يَغوث المنزل حتى دخل غراب أسود من النافذة، ومكث في حِجر العامرية ينظر إليها وفي عينيه تحتشد دموع القهر؛ قالت حينها العامرية وهي تمسح الدموع عنهما:

- لا تبكِ يا أعصم، أعدك أن نقتل يَغوث يومًا.

**

وهكذا بات قتل يَغوث هو هدفها الوحيد،

كان انتقامها يتطلب منها العثور على شخص لا يُثير وجوده الشبهات حولها .. فواصلت بحثها خلال سنوات طويلة حتى عثرت على آزر الذي كان يُحقق لها المطلوب - فهو فتىً مجهول الوالدين، قوي، لديه حُلم مستعد لأن يضحي بأي شيء من أجل تحقيقه، يَفي بالوعود ولا يخلفها، والأهم من كل ما سبق هو أن اهتمامها به لن يكشف حقيقة سعيها وراء تحقيقها للثأر - فقامت بإيوائه وتدريبه على شرط أن يُنفذ لها العهد الذي طلبته منه، وهو أن يَقتلها في اللحظة التي تنطق فيها أمامه جملة السر والتي كانت عبارة عن:

" قرص القمر مُكتمل في نصف عباءة الليل، أليس كذلك "

لذلك فإنه ما إن سمع تلك الجملة حتى أدرك أنها اللحظة المنشودة؛ فاحتشدت في عيونه دموع غريبة هي دموع الوداع؛ وقال يؤكد لها أنه ماضٍ في الوفاء بعهده:

- **نعم، هو كذلك.**

ثم طعنها بالسيف من ظهرها بغتة،

وأعقبها بطعنة خنجر كانت العامرية قد أعطته إياه بعد أن لعنته بطلسم ما، وطلبت منه الاحتفاظ به دائمًا معه أينما حلّ وارتحل لتنفيذ المهمة متى يحين وقتها.

وهكذا فإنها ما إن نطقت أمامه بكلمة السر حتى نفذ ما تعهد لها به، فطعنها أولًا بالسيف ليُغلق منافذ الهرب على الشيطان يَغوث الذي كان يسكن جسدها تلك الليلة مختبئًا من وجع مرضه " **الجازور** " كعادته كل ليلة يكتمل فيها القمر، ولما بات الشيطان في جسدها محاصرًا قتله آزر بالخنجر المُطلسم؛ فسقطت العامرية أرضًا ومن فمها ينزفُ خيطان من الدم:

أحدهما أحمر وهو دمها، وآخر أسود وهو دم الشيطان الذي بداخلها.

لقد كان يَغوث شيطانًا قويًا،

ولم يكن بوسع العامرية أو أي أحدٍ آخر أن يقتله إلا بهذه الطريقة،

وهكذا دفعت تلك المرأة حياتها ثمنًا لتحقيق ثأرها الذي تعهدت به أمام العرب، عندما أمسكت أستار الكعبة بيديها النازفتين دمًا وأقسمت بأنها لن تنسى وسوف تثأر.

**

وبعد أن انتهت والدة العامرية من سرد حكاية ابنتها جففت دموعها بيدها المعفرة برمل القبر، ثم أطالت النظر إلى آزر وقد أُعجبت بوسامته العربية وحُسن استماعه إليها وأدبه الجم أثناء حديثها، ومسحة الحزن الصادقة التي رأتها عليه.

- لا عجب في أن العامرية كانت تُحبك يا فتى.

قال يُصحح لها:

- بل كانت تكرهني أكثر مما تكره الشيطان يَغوث ربما .. وأظنها كانت ستكون أكثر سعادة لو أنها وجدت من يقتلني بعد موتها.

ابتسمت بحزن وقالت تكاشفه:

- لقد أحبتك بصدق ولكنها كانت طوال الوقت تتجنب أن تخبرك بذلك؛ حتى لا تجعل من مهمة قتلك لها صعبة.

- حقًا ؟

- نعم؛ لقد كنت بالنسبة إليها الولد الذي كانت تتمنى أن تُنجبه.

لم يكن آزر يدري - بعد ذلك الاعتراف - إن كان يجب عليه أن يحزن لأنه خسر المرأة التي أحبته بكل ذلك القدر ؟ أم يفرح لأنه كان عند حسن ظنها وحقق لها ما تعهد لها به.

- إن العامرية توصيك بأن تكمل طريقك لتصل إلى المجد الذي جاء في نبوءة الكاهن؛ فاجعل روحها تستقر سعيدة يا بني؛ فهي ستظل دائمًا تتطلع إليك من السماء.



رفع آزر رأسه إلى الأعلى ومكث يتأمل السماء وكأنه يُفتش بين النجوم عن عبني معلمته، قبل أن يقول بينه وبين نفسه " أعدك أن أفعل" ثم استدار وقفل عائدًا إلى مكة دون أن يعلم أن روح العامرية قد استمعت إلى وعده الذي نطق به في نفسه، وستظل طوال الوقت القادم تنتظر وفاءه بذلك الوعد.

١٦

ما إن عاد إلى المضارب المكية حتى لاحظ شيئًا أثار تعجبه؛ فقد شاهد صاحبه قَيس وهو يعسُّ الدروب ويتلفت حوله، وكأنه يتلصص على أحد ما؛ فاقترب منه وسأله:

- ما الذي تفعله هنا يا قَيس ؟

- لقد رأيتُ اليوم ثلاثة رجال غرباء عليهم هيئة أهل اليمن.

- وما في ذلك وكل الناس يأتون إلى مكة من كل أصقاع الجزيرة ؟!

- لقد رابني أمرهم يا آزر؛ فهم لم يأتوا لزيارة قريب أو صديق؛ ولم يذهبوا للطواف حول الكعبة، أو مقابلة السادة في دار الندوة، أو للتبضع من السوق؛ لقد جاؤوا لأجل هدفٍ ما وإن قلبي ليس مرتاحًا لأمرهم.

انتقلت عدوى القلق إلى آزر الذي أدرك أن في الأمر ما يُريب:

- وأين هم الآن ؟

- لستُ متأكدًا ولكنني لمحتهم يسلكون ذلك الممر هناك.

وما إن نظر آزر إلى حيث يُشير صاحبه قَيس حتى تضاعف القلق في داخله أكثر؛

فهناك تنهض دار عامر بن لُكيز ..

**

(عامر بن لُكيز)

كان عامر مستيقظًا في تلك الليلة يتأمل على ضوء الشمعة الخافتة ملامح ابنته الراقدة في مهدها بسلام، وثمة صِراع من المشاعر المختلطة؛ ففي ذلك الزمن حتى وإن نجت الطفلة من الوأد فإنها لا تسلم من كره الأب وإهماله وإقصائه لها .. لكن عامر تلك الليلة كان يحمل مشاعر مختلفة تجاه ابنته، فجعل يدنو مقتربًا منها بخفة وحرص وكأنه يخاف أن يصدر صوتًا يوقظ به زوجته من نومها، فتراه متلبسًا وهو بصدد القيام بذلك الشيء المستنكر على رجال ذلك الزمان: واصل عامر اقترابه من قَمر مدفوعًا بغريزة أبوية عجز عن مقاومتها؛ فحملها بين يديه وراح يستنشق عَبق بشرتها البريئة الصافية الممتزجة ببقايا الحليب ورائحة الأطفال المحببة؛ فكان ذلك الشعور هو ما جعله يبتسم على الرغم منه بينما كان يضمها إلى صدره بحنان غريب.

في تلك اللحظة اقترب ظلٌّ ما من عند نافذة الحجرة؛ فانتبه عامر إليه؛ وتساءل عن السبب الذي قد يدفع بأحد عبيد الدار إلى الاقتراب من حجرته في هذا الوقت المتأخر؛ فأعاد الطفلة إلى مهدها وذهب ليستطلع الأمر:

- ما وراءك يا عبد الدار ؟!

- وكيل تجارتك في اليمن: سُراقة بن ذيل الناقة يا سيدي.

- ما به ؟

- ينتظرك عند الباب.

قطب السيد حاجبيه وقد دهمه سيل من الهواجس المرعبة: فوكيل تجارته في اليمن سراقة بن ذيل الناقة لن يأتي إلى مكة في هذه الساعة إلا لأمر جلل، اندفع السيد عامر عبر فناء الدار وبالكاد تحمله قدمان راجفتان حتى وصل إلى الباب وفتحه:

- أبيتَ اللعن يا سُراقة، أحل شيء بتجارتي في اليمن ؟!

- اطمئن يا سيدي، كل شيء هنالك على ما يرام.

- إذًا، ما الذي دفعك للقدوم الساعة ؟

- إنها بعض الأخبار.

- وهذه الأخبار ألم تكن لتنتظر عودتي إلى اليمن ؟!

- عفوك يا سيدي ولكنها بالفعل أخبارٌ لا تنتظر.

دقَّ قلب عامر بقوة وهو يقول:

- إذًا هات ما عندك بسرعة !

قال سُراقة:

- من الأفضل أن تأتي لترى بعينك؛ فهذه بضاعة خاصة يجب أن تراها بنفسك قبل عرضها في أسواق مكة.

ومع أن هنالك الكثير من التناقضات في كلام الوكيل؛ فمرة يقول إن لديه أخبارًا من اليمن لا تحتمل التأجيل، ومرة يغير كلامه فيقول إنه جاء ببضاعة لعرضها في السوق؛ غير أن الطمع لدى عامر بن لُكيز غلب بداخله غريزة الحذر وهذا ما دفعه لأن يسير بصحبة سراقة إلى خارج الدار، ثم يتبعه حتى وصل معه إلى مكان منزوٍ بعيد لا يراه فيه أحد:

- أين البضاعة التي قلت عنها ؟

في تلك اللحظة أخرج سُراقة خنجرًا من حزامه في ذات الوقت الذي اندفع فيها رجلان من مخبئهما، وأحاطاه من اليمين والشمال ليدرك عامر حقيقة الفخ الذي وقع فيه.

فقال وهو ينظر إلى وجه غادره:

- ويلك أيها الخائن، أتعض اليد التي أطعمتك ؟!

- أفعل مقابل الثمن المناسب؛ فما إن يُقطع رأسك حتى تؤول كل تجارتك في اليمن إليَّ.

قال سُراقة ذلك ثم انقضّ عليه بسرعة دون أن يمنحه الفرصة ليقول شيئًا أو يدافع عن نفسه. لكن قبل أن يصل بخنجره إلى صدر سيده ارتفع في سكون الليل صوت يشبه حفيف سيفٍ يشق بنصله تيار الهواء ليقطع عنق سُراقة ويفصلها عن جسده؛ فهوى الجسد المقطوع أرضًا ليكشف من ورائه عن الفاعل الذي كان صبيًا يافعًا بدا أنه لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، يعقص شعره فوق رأسه على هيئة ذيل حصان، ويقف إلى جواره فتى له سحنة أهل الشمال يُمسك بسيفه استعدادًا لما سيقع من اشتباك؛ وبالفعل سارع صاحبا سُراقة بمهاجمة الصبيين انتقامًا لمقتل صاحبهما وقد استهانا بهما لحداثة عمرهما، لكن آزر وقَيس انقضّا عليهما مثل ذئبين جامحين؛ فكوّما جثتيهما إلى جوار جثة صاحبهما المقطوعة الرأس.

احتاج عامر بعض الوقت حتى يَفيق من نوبة الهلع التي أصابته .. وعندما استجمع شتاته لاحقًا والتفت إلى حيث يقف الصَبيان شاهدهما وهما يبتعدان في عمق الظلام؛ فتبعهما بصوته:

- على رسلكما أيها الصبيان، على رسلكما لحظة.

توقف الاثنان وهما يلتفتان إلى الخلف ويشاهدانه وهو يقترب منهما بخطوات كان ما يزال عليها أثر الخوف واضحًا .. قال من بين أنفاسه الراجفة:

- إنني مدين لكما بحياتي.

قال آزر:

- لم نفعل ما فعلناه لتدين لنا بحياتك يا عم؛ إن ما فعلناه نخوة وحمية، فأنت من حينا، وما يمسّك يمسّنا.

ابتسم عامر وقال في إعجاب:

- وبحق هُبل إنَّ هذا ليس بكلام بربري لا أصل له.

مال فؤاد آزر إلى تلك الكلمات، وتمنى أن يُطال في عمره حتى يأتي اليوم الذي يسمع فيه الناس وهم يعترفون بأصالته وشجاعته، ثم استدار بعد ذلك ومعه قَيس وهمَّا بالمغادرة، ولكن عامر استوقفهما مجددًا وقال وقد انتبه للتو لملاحظة مهمة:

- إنك بارع في القِتال يا فتى، وما رأيته منك قبل قليل لا يستقيم مع خسارتك لقب صِنديد العرب؛ فأسألك بحق هُبل أن تُخبرني عن الثمن الذي دفعه لك الحارث لتدع ابنه يتغلب عليك.

صمت آزر بينما أُفلتت من لسان صاحبه قَيس كلمة كانت السبب في كشف الحقيقة:

- لم يكن لأجل ثمن دُفع بل لأجل روح دُفع عنها الموت.

كانت الجملة التي قالها قَيس هي السبب الذي جعل الخيوط تنتظم في عقل عامر وترشده إلى معرفة الحقيقة: " **فصاحبه الحارث لم يلحق به تلك الليلة ويطلب منه عدم وأد ابنته من تلقاء نفسه، بل كان هذا هو الثمن الذي دفعه إلى آزر مقابل شراء الفوز لابنه** "

- ولكن لماذا - قال عامر - لماذا صنعت هذا أيها الفتى ؟

في الحقيقة: لم تكن نبوءة الكاهن شِق المنعلقة بقمر هي السبب الوحيد الذي جعل آزر يُقدم تلك التضحية بل كان هنالك سبب آخر أكثر أهمية بالنسبة إليه:

- إنقاذ روحٍ بريئة أعظم عندي من لقب صِنديد العرب.

الجميع يعتقد أنه يملك القِيم والأخلاق، وحدها المواقف الصعبة التي يمر بها الإنسان هي ما تؤكد أو تنفي ذلك .. وقد أثبت هذا الموقف لعامر إنسانية وأصالة ذلك الصبي؛ وهذا ما أكسبه احترامًا له فاق احترامه لسادة الوادي:

- اطلب ما تشاء يا فتى؛ إن مالي وكُل ما أملك رهن إشارتك.

- لا تقل هذا يا عم؛ فالكريم لا يؤجر على شجاعته.

ربّت عامر على كتفه وقال بصدق:

- لطالما تمنيت أن ترزقني الآلهة بالولد .. وإني وحق هُبل لا أتمنى أن أُرزق إلا بولد في مثل شمائلك؛ فاطلب يا بني واعتبرها أُعطية من شخص في مقام أبيك.

اختلجت أعماق آزر حين سمع لفظ الأب وقال يطلب:

- لقد وعيت على هذه الدنيا، ولستُ أعرف إلا أمي الذئبة حواء وأجيرة تعمل لدى جدي المتوفي (نُمير بن رَبيعة) اسمها بُثينة، فإن أبيتَ إلا أن أطلب منك شيئًا يا عم فإني آمل أن تساعدها على إيجاد عملٍ لها؛ فإن كل البيوت ينفرون منها ولا يستأجرونها؛ لكونها ترعى غلامًا بربريًا غير ذي نسب.

قال عامر:

- إني أبحث بالفعل عن امرأة ترعى ابنتي "قمر"؛ فإن والدتها عاجزة عن الحركة منذ أن أنجبتها بسبب المرض - ثم أضاف يقترح عليهما: وإنني غدًا صباحًا سأسافر إلى اليمن؛ فيجب أن أسارع بالعودة إلى تجارتي بعد موت هذا الخسيس؛ فما رأيكما أن تُرافقا قافلتي إلى اليمن فأُعلمكما هناك التجارة وتُصيبان ثراءً عظيمًا ؟

- أما أنا فلا أستطيع مفارقة حواء ولا بُثينة، ولا يَطيبُ لي فِراق الكعبة وأرض مكة، ولكن قَيس سوف يأتي معك.

التفت قَيس نحو آزر وقال رافضًا:

- لقد تعاهدنا ألّا نتفارق.

- إنه فِراق مؤقت يا صاحبي.

- ما لي أراك تريد فِراقي إلى هذا الحد ؟

- لا ورب الكعبة؛ فأنت الشخص الوحيد الذي ارتضى أن يكون صاحبي، وإنني بأمسِّ الحاجة إليك، ولكنني هنا لا أستطيع أن أقدم لك شيئًا، بينما هناك ستتعلم التجارة وتحوز مالًا وفيرًا - وأضاف مازحًا: ثم تعود لفتح دكانًا في سوق مكة لأعمل فيه معك صبيًا بالأجرة.

- بل مالي، ونفسي، وكل ما أملك لك.

تعانق الاثنان ولا أحد منهما يعلم إن كان سيلقى صاحبه بعد يومه هذا أم هو فراق أخير.

التفت آزر نحو عامر وقال يوصيه:

- لو حدث له مكروه فإنني لن أسامحك يا عم.

ابتسم عامر بن لُكيز لذلك التهديد اللطيف وقال مبادرًا:

- لا تقلق على صاحبك .. وفي المقابل أنا لن أقلق على منزلي فأنت سوف تتولى في غيابي كل شؤوني في مكة .. ثم مد يده في الهواء مصافحًا وقال:

- هل اتفقنا يا آزر ؟

مد آزر يده مصافحًا وقال:

- نعم، اتفقنا.

**

عاد عامر بن لُكيز إلى داره فجرًا وقد جمع الخدم في ساحة الدار وأخبرهم أنه سينطلق بعد قليل بقافلته إلى اليمن .. وأخبرهم أنه قد استأجر مربية خاصة لتعتني بطفلته قَمر اسمها بُثينة، وأنه قد أوكل جميع شؤونه إلى آزر وأمرهم بطاعته، ثم استدار وذهب إلى الحجرة ليودع الزوجة والطفلة قبل أن ينطلق.

حين دخل عامر إلى الحجرة لم يجد زوجته فوق السرير كما كانت عليه قبل أن يغادر، لم يتعجب حينها كثيرًا، حيث ظن أنها قد ذهبت كعادتها إلى الكعبة لأجل أن تُصلي إلى هُبل وتدعوه أن ينصرها على مرضها ويشفيها منه، فاقترب من طفلته منحنيًا ليضع قبلة على جبينها ولكنه ما كاد يدنو منها إلى ذلك الحد حتى انتبه لوجود شيء مُقزز؛ إنها حشرة ذات أربع وأربعين كانت تختبئ في قِماط الطفلة؛ فأزاحها بظهر يده لتسقط أرضًا ثم قام بدهسها.

ولما تأكد من أن الحشرة ماتت تحت قدمه عاد لينحني ويضع قُبلته على جبين طفلته ثم أوصى أحد الخدم أن يُزيل الحشرة المدهوسة عن الأرض ويُنظف المكان من دمها وقال يوصيه أيضًا:

- وأريدك أن تنقل إلى والدة قَمر تحياتي وأن تخبرها بأنني كنت سأنتظرها حتى تعود من عند الكعبة لولا مخافة التأخر عن موعد سير القافلة.

ثم رحل دون أن يعلم أنه

لن يرى زوجته بعد ذلك اليوم أبدًا ..

١٧

بدأ آزر ذلك الصباح بتولي مهامه الجديدة ما بين جلب لوازم الدار ورعاية الماشية وإعادتها إلى مرابضها والتأكد من أن الغِلمان يؤدون أعمالهم كما ينبغي، وأثناء ذلك الوقت كانت المربية بُثينة تتولى رعاية الطفلة قَمر، وقد جلبت لها إحدى المرضعات من البوادي المحيطة لتكمل فطامها بعد اختفاء والدتها المريب.

وبعد شهور من ذلك بعث آزر برسالة إلى سيد الدار عامر بن لُكيز في اليمن، يطمئنه فيها عن أحوال الدار ويخبره فيها بما توصل إليه بشأن البحث عن زوجته إذ كتب إليه يقول: " وقد انتشرت إشاعة غريبة أيها العم عامر، تزعم فيها بعض النسوة أن كاهنًا ما قد سخط زوجتكم (تليدة) إلى حشرة ذات أربع وأربعين .. وإنني أكتب إليك الآن وأنا لا أصدق ما يُقال ولكنني أنقله إليكم من باب العِلم بالشيء لا أكثر " وبالرغم من أن آزر كان قد استمع لذلك التهديد بنفسه قبل زُهاء العام عندما قال الكاهن لها: " تُسخطين إلى ذات أربعٍ وأربعين إلا أن تقولي الحق ولا تكذبين " إلا أنه لم يخطر بباله أبدًا أن يكون ذلك التهديد حقيقيًا؛ ولذلك لم يأخذ الإشاعة المنتشرة على محمل الجِد.

بعد أسابيع من ذلك وصلت من عامر بن لُكيز رسالة إلى آزر، " أوقف البحث عنها يا آزر " هذا ما جاء مكتوبًا في الرسالة، سطر واحد فقط، يخفي خلفه سر لن يكشفه عامر لأحد.

**

(قَيس بن هامة الشمال)

مرَّ بعد تلك الرسالة الكثير من الشهور، كان قَيس خلالها قد أصبح الوكيل المعتمد لدى تجارة عامر بن لُكيز في الجزيرة العربية، وقد ساهم بذكائه في تأسيس شبكة تجارية ضخمة لصالح سيده عامر تربط ما بين إفريقيا واليمن، فتضخَّمت مسؤولياته وتراكم عليه العمل حتى بات يومه يذهب كله في أمور التجارة وشؤونها، وبالرغم من تلك المشاغل، كان يؤمن بأن الوقت يُصنع لأجل الأحبة، فكان يغادر اليمن كل شهر مرة ليزور مكة؛ من أجل ليلة واحدة فقط يقضيها مع آزر والذئبة حواء فوق جبل أبي قُبيس، يستلقون على ظهورهم ويتأملون السماء، بينما بُثينة تقصُ عليهم وتُنشد الأشعار وتغني بصوتها العذب بينما الطفلة قَمر تَرقد في حضنها.

**

(عامر بن لكيز)

وفي تلك الفترة كان الحظ قد ابتسم في وجه عامر بن لُكيز الذي استطاع عبر شبكة من المعارف والأصحاب، مدعومًا بسمعته الطيبة وكونه أحد أكابر التجار في الجزيرة من الوصول إلى المجلس الخاص لعائلة آل حِمير الملكية؛ حيث أصبح من الجُلساء المقربين لرأس الحُكم " التُبع اليماني " الأمر الذي حاز بسببه مزيدًا من القوة والنفوذ اللذين أسهما في زيادة ثرائه وذيوع صيته في أقطاب الجزيرة العربية.

**

(آزر)

في الجهة المقابلة: كان الحظ أيضًا قد أرخى بظلاله على آزر الذي أصبح يستطيع - بسبب ظروف عمله الجديدة - أن يشاهد قَمر وهي تكبر شيئًا فشيئًا أمام عينيه؛ فتتحول من رضيعة تحبو على أربع إلى طفلة تمشي وتهرول بين قطعان الأغنام، عندما يأخذها معه في الصباح الباكر فتملأ الوادي بأصوات ضحكاتها المُبهجة، وهي تلعب وتكتشف الأشياء بيديها ولسانها حتى يُرهقها التعب عند المساء وتغفو في حُضن حواء ليحملها على كتفه ويُعيدها إلى الدار مجددًا وهو يسوق خلفه قطعان الماشية.

ومع الوقت:

تعلقت به تلك الطفلة أيضًا وكأنما عَقدت السماء قلبها به برباط وثيق؛ فعوضها عن الأب الذي حرمتها ظروف الحياة منه، وعن الأم التي وعت للحياة وهي لا تعرفها .. حتى إنها حين نطقت لأول مرة كان اسمه هو أول شيء تنطقه .. وقد لفظته بطريقة طفولية جعلت آزر وبُثينة يغرقان في دوامة من الضحك المتواصل .. وسار الحال على هذا المنوال تسع سنوات قادمة حتى إذا جاء موسم حج[16] ذلك العام كان آزر موعودًا بغمامة سوداء سوف تُعكر صفو حياته، وتكون نهاية حقبة سعيدة وبداية لحياة مختلفة.

---

١٦ كانت العرب تحج إلى الكعبة في زمن الجاهلية حيث كانوا يجتمعون لعبادة آلهتهم المنتصبة حول الكعبة، وكانت للحج أهمية اقتصادية حيث العرب يتبادلون السلع ويَعقدون الاتفاقات فيما بينهم، وكان ذلك الموسم يشكل لهم أيضًا مناسبة اجتماعية لتبادل الاخبار، وتقوية العلاقات فيما بينهم،

الباب الثالث



١

في حضرة تُبع اليمن

كانت قاعة مَلكية مَهيبة بحق؛ زُينت حوائطها العالية برسومات تصور مشاهد من الحروب والملاحم التي خاضها تبابعة اليمن القِدام تُظهر فيها مدى قوتهم وقدرتهم على هزيمة أعدائهم وسحق جيوشهم في الحروب، أما سُقوف القاعة فقد زُينت بأبيات شِعرية تُظهر مدى عَظَمة آل حِمير وحقهم في السيادة على بقية الخلق.

في منتصف القاعة كان التُبع اليماني (مَعد بن شَهوان) يجلس بكامل قيافته الملكية فوق عرش مُذهب طويل الظهر .. وإلى جانب عرشه أسد ضخم مُقيد عنقه بالأغلال .. ويحف عرشه عن اليمين والشمال أصحابه الأخلاء من الأمراء وأعيان القوم.

نهض أحد رجال التُبع وهو أمير اسمه مَرحب، كان التُبع قد ولاه على إقليم يُسمى " **إقليم تُهامة السوداء** " وهي المنطقة ما بين مكة واليمن تسكنها قبائل عربية كان التُبع قد أدخلها إلى حكمه بالغدر والحيلة:

– إنني استأذنك يا تبع الزمان وسليل آل حِمير العظام، أن تسمح لي بالذهاب إلى الحجاز؛ فقد نويت هذا العام أن أحج البيت المعمور، وأذبح الأضاحي فأقدمها قرابينَ لهُبل؛ وأطلب منه أن يُكللك بالنصر والأمان ويَمدك بطيلة العمر وراحة البال.

مع هزة رأس طفيفة قال التُبع اليماني:

– أسمح لك يا مَرحب – وأضاف: اذهب مُكللًا بالسلامة والبركات.

هُنا تشجع رجل آخر من الأعيان، حيث نهض وقال:

– اسمح لي يا تبع الزمان وسليل آل حِمير العظام، أن أُرافق الأمير مَرحب إلى مكة فأُرشده إليها؛ فإنني كما تعلم من أهل تلك المنطقة وأدل طرقاتها المختصرة.

كاد التُبع أن يرفض، ولكن الأمير مَرحب قال يطلبه:

– ائذن له يا سيدي؛ فالطريق تقصر بالصحبة ولا بد أن عامر بن لُكيز قد اشتاق لبني قومه.

كان التُبع قد أنزله مكانة مُحببة في قلبه، وقد أسند إليه بعض الأمور المتعلقة بالتجارة الخاصة لعائلة آل حِمير الملكية؛ لذلك كان السماح له بالذهاب شيئًا ليس بالسهل:

- أمللت صُحبتنا يا عامر ؟

- حاشى وكلا يا مولاي؛ فإن السنين مرّت كلمح البصر في ظِل حفاوتكم ومودتكم - ثم أضاف موضحًا:

- حتى أن ابنتي قد بلغت عامها التاسع دون أن أراها إلا مرة أو مرتين؛ وكل ما أطمح إليه هو أن أتفقد شؤونها وشؤون الدار وأُلقي على أصحابي السلام ثم أعود إليكم.

هزّ التُبع اليماني رأسه كما لو أنه اقتنع بما سمعه وقال:

- آذن لك بالرحيل على ألّا تُطيل الغياب، وتعود مع الأمير مَرحب بعد انقضاء موسم حجكم دون إبطاء.

عامر وهو ينحني:

- لمولاي تبع الزمان، سليل آل حِمير العظام السمع والطاعة.

ارتسمت على وجه التُبع اليماني ابتسامة الرضى والموافقة وهو يرفع يده بإشارة محددة سرعان ما التقطها العبيد؛ فبدؤوا يطوفون بصحاف الخمور ليستبدلوا الأقداح الفارغة بأخرى مليئة. في هذه اللحظة كان عامر بن لُكيز سعيدًا لاقتراب ذهابه إلى مكة ورؤيته أصحابه وابنته قَمر، ولو كان يعلم ما ينتظره هناك لكان سيفعل كل ما يستطيع لمنع تلك الرحلة المشؤومة.